سلسلة المحجة البيضاء

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

أحوال السالكين



الصبر والشكر

الرجاء والخوف

الفقر والزهد

دار المحجة البيضاء



شبكة الفكر
alfeker.net


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة المحجة البيضاء

أحوال السالكين

الصبر والشكر - الرجاء والخوف - الفقر والزهد

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥ م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

الصبر والشكر

مقدمة

إن الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر، وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمّى تعالى نفسه صبوراً شكوراً.

فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا سطري الإيمان، ثم غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن، ولا سبيل إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، فكيف يتصوّر سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به ومن به يكون الإيمان وهما الصبر والشكر؟

إن التقاعس عن معرفة الصبر والشكر تقاعس عن معرفة ما به يتحقق الإيمان. لذا كان كلا الشطرين بحاجة إلى الإيضاح والبيان ونحن سنقوم بتوضيحهما في فصل واحد لارتباط أحدهما بالآخر.

القسم الأول

الصبر

فضيلة الصبر

■ بيان فضيلة الصبر في القرآن:

لقد وصف الله سبحانه الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيّف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عزَّ من قائل:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[1].

وقال:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[2].

وقال:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال:

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾[4].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٤.

وقال:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)].

فما من شيء يتقرب به الإنسان إلا وأجره بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأن الصوم من الصبر كان الصوم نصف الصبر: قال تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به».

فأضاف الصوم إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٢)]. وعلق النصرة على الصبر فقال:

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[(٣)]، وأعطى الصابرين أموراً لم يعطها لغيرهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[(٤)] فالهدى والصلوات والرحمة عطايا إلٰهية ممنوحة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول..

■ بيان فضيلة الصبر في الروايات:

قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[(٥)].

وقال ﷺ: «من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطي حظّه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إليّ من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٥) الترغيب والترهيب: ج٤ ـ ص ٢٧٧.

عمل جميعكم، ولكني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً، ويترككم أهل السماء عند ذلك. فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾»[1] وروي أن رسول الله ﷺ سئل عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة»[2].

وقال ﷺ أيضاً: «الصبر كنز من كنوز الجنة»[3].

وسئل ﷺ مرة؛ ما الإيمان؟ فقال: «الصبر»[4].

وهذا يشبه قوله ﷺ: «الحج عرفة» بمعنى أن الحج معظمه عرفة.

وقال أيضاً: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[5].

وقيل إنه أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أن تخلق بأخلاقي، وإن من أخلاقي أني أنا الصبور.

وفي حديث آخر أنه لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار قال: «أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: وما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ: مؤمنون ورب الكعبة»[6].

وقال ﷺ: «في الصبر على ما تكره خيرٌ كثير»[7].

---

(١) قال العراقي: تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا.

(٢) مكارم الأخلاق: الطبراني.

(٣) ما عثرت على لفظ له في كتبهم ويأتي من طريق الخاصة نحوه.

(٤) لم يعثر عليه بهذا اللفظ وأخرج أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

(٥) محاسبة النفس: رواه ابن أبي الدنيا من قول عمر بن عبد العزيز.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٧) الترمذي.

وقال المسيح عليه السلام: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلاّ بصبركم على ما تكرهون».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً، والله يحب الصابرين»[1].

وقال علي عليه السلام: «بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل»[2].

وقال أيضاً: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبرّ مطل عليه ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ: دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه»[4].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً قال: «من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد»[5].

وعنه عليه السلام قال: «إن الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً، وابتلي قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة»[6].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) الكافي.
(٣) نهج البلاغة: باب الحكم رقم ٨٢.
(٤) الكافي: ج٢، ص ٩٠.
(٥) الكافي: ج٢، ص ٩٢.
(٦) المصدر السابق.

صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن اعطى نفسه لذّتها وشهوتها دخل النار»[١].

وعن النبي ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه بالقتل والتجبّر ولا الغنى إلا بالغصب والبخل ولا المحبة إلا باستخراج الدِّين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العزّ آتاه الله ثواب خمسين صدِّيقاً ممن صدّق بي»[٢].

والأخبار في فضيلة الصبر أكثر من أن تحصى.

---

(١) الكافي: ج٢، ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٩١.

حقيقة الصبر واختصاصه بالإنسان

■ حقيقة الصبر:

إن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم في ثلاثة أمور:

١ ـ معارف.

٢ ـ أحوال.

٣ ـ أعمال.

فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال. فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار، وهذا مطَّرد في جميع منازل السالكين إلى الله. والصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة والعمل هو كالثمرة يصدر عنها. أما حقيقة الصبر فهو عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين، فلا تتصور في حق البهائم والملائكة. أما البهائم فلنقصانها، وأما الملائكة فلكمالها.

■ كيف صار الصبر مختصاً بالإنسان؟:

بيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخّرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة أخرى

تصادم هذه الشهوة وتردها عن مقتضاها. أما الملائكة فإنهم جردوا للشوق إلى الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليها شهوة تصرفها عن هذا الشوق والقرب.

أما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبى ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما وليس في الصبى إلا جند الهوى كما في البهائم. ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكّل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين:

الأول: يهديه.

الثاني: يقويه.

فتميّز الإنسان بمعونة الملكين عن البهائم واختُصَّ بصفتين:

الأولى: معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله.

والثانية: معرفة المصالح المتعلقة بالعواقب. وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والمعرفة. أما البهيمة فلا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب، بل إن مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ وأما الدواء النافع وإن كان مضرّاً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه. فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له عواقب مكروهة، ولكن هذه الهداية لم تكن لوحدها كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضرّ. فكم من أمر مضرّ يعرفه الإنسان، كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه، فافتقر إلى قدرة وقوّة يدفع بها الشهوات ويجاهدها حتى يقطع عدوانها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال

جنود الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند عند قتال جنود الشهوة وأخرى يقوى، وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد.

كما إن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا حدّ له، ولنسمّ هذه الصفة التي بها افترق الإنسان عن الحيوان ـ في قمع الشهوات وقهرها ـ باعثاً دينياً، ولنسمّ مطالبة الشهوات باعث الهوى، وينبغي أن نعلم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، وساحة المعركة قلب العبد، ومدد باعث الدين هم الملائكة الناصرين لحزب الله، ومدد باعث الشهوة هم الشياطين الناصرين لأعداء الله. وهكذا كان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوة. فإن ثبت الإنسان حتى قهر هذا الباعث واستمر في مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر على دفعها فقد التحق باتباع الشياطين.

إذن إن ترك الأفعال المشتهاة يثمر الصبر، الذي هو عبارة عن ثبات باعث الدين مقابل باعث الهوى. وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوة، ومخالفتها لأسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

فإذا قوي يقين الإنسان وإيمانه بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى، فسيقوى عندها باعث الدين، وإذا قوي هذا الباعث تمت الأفعال على خلاف ما تريده الشهوة.

الصبر نصف الإيمان

إن الإيمان تارة يطلق على التصديق بأصول الدين، وأخرى على الأعمال الصادرة من الاعتقاد بهذه الأصول وثالثة يطلق عليهما معاً.

والصبر نصف الإيمان باعتبارين:

الأول: عندما يطلق الإيمان على التصديق بأصول الدين والأعمال الصادرة عنها معاً، فيكون للإيمان ركنان: أحدهما اليقين، والآخر الصبر.

والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله عبده إلى أصول الدين.

والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين. إذ اليقين يعرّفه أن المعصية ضارة وأن الطاعة نافعة. ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل، كما ذكرنا من قبل، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار.

ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر...»[1].

الثاني: عندما يطلق الإيمان على الأعمال لا على المعارف. فعند

---

(١) الكافي: ج٢ ص ٥٢، رقم ٦.

ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة وإلى ما يضرّه فيهما. وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر. فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما كان اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول. وقد روي عن رسول الله أنه قال: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر»[1].

ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى، وكان باعث الهوى قسمين:

١ ـ باعث من جهة الشهوة.

٢ ـ وباعث من جهة الغضب.

والشهوة لطلب اللذيذ، والغضب الهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، لذا قال رسول الله ﷺ بهذا الشأن إن: «الصوم نصف الصبر»[2].

لأن كمال الصبر يكون بالصبر عن داعي الشهوة والغضب معاً، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان. وهكذا ينبغي أن نفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان، وأن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٢) المصدر السابق.

معاني الصبر وأقسامه

إن الصبر نوعان:

الأول ـ صبر بدني: كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها. وهو إما:

١ ـ صبر بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة من عبادات وغيرها.

٢ ـ صبر بالتحمل: كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو النوع الثاني من الصبر وهو الصبر النفسي.

الثاني ـ صبر نفسي: وهو صبر عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى. وهذا النوع من الصبر على عدة أقسام:

١ ـ العفة: وهو الصبر عن شهوة البطن والفرج.

٢ ـ الصبر على المصيبة: وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع.

٣ ـ ضبط النفس: وهو الصبر على الغنى وتضاده حالة تسمى البطر.

٤ ـ الشجاعة: وهي الصبر في الحرب والمقاتلة ويضاده الجبن.

٥ ـ الحلم: وهو كظم الغيظ والغضب ويضاده التذمر.

٦ ـ سعة الصدر: الصبر على نائبة من نوائب الزمان المضجرة ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر.

الكتمان: وهو الصبر على إخفاء الكلام وصاحبه يسمى كتوماً.

٨ ـ الزهد: وهو الصبر عن فضول العيش ويضاده الحرص.

٩ ـ القناعة: وهي الصبر على القدر اليسير من الحظوظ ويضاده الشره. فكما نلاحظ إن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، لذلك لما سئل رسول الله ﷺ مرّة عن الإيمان أجاب: «هو الصبر»، لأنه أعز أعمال الإيمان.

ولقد جمع الله تعالى بعض هذه الأقسام في آية وسمى الكل صبراً فقال عز من قائل: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ (أي المصيبة) وَٱلضَّرَّآءِ (أي الفقر) وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ (أي المحاربة) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

فإذن هذه هي أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

الصبر وقهر الأهواء والشهوات

إن الصبر باعتبار قوته وضعفه له ثلاث حالات:

الأولى: أن يغلب الصبر جميع الشهوات والأهواء.

الثانية: أن لا يغلب شيئاً منها.

الثالثة: أن يغلب بعضها دون البعض الآخر.

في الحالة الأولى: يقهر الهوى فلا يبقى له قوة المنازعة. وهذا إنما يتم من خلال المداومة على الصبر، لذا يقال: من صبر ظفر.

والواصلون إلى هذه المرتبة هم الأقلون، فلا جرم إنهم الصديقون المقربون: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ فهؤلاء الذين لزموا الصراط المستقيم، واستووا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم وإياهم ينادي المنادي: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾، فإذا أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا، كما قال رسول الله ﷺ: «اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير»[1] وقال بعض العارفين إن أهل الصبر على ثلاثة مقامات:

الأول: ترك الشكوى وهذه درجة التأبين.

---

(١) أخرجه الترمذي وأحمد في المسند.

الثاني: الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين.

الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين.

إذاً يتبين لنا أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر.

في الحالة الثانية: يتغلب الهوى وتسقط بالكامل منازعة باعث الدين، فيسلم الإنسان نفسه إلى جند الشيطان ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة. وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم، فحكموا أعداء الله على قلوبهم التي هي سرّ من أسرار الله وأمر من أموره. وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[1]، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت تجارتهم.

وقيل لمن أراد إرشادهم وهدايتهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾، وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط، أو الغرور بالأماني، وهو غاية الحمق كما قالﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنّى على الله»[2].

وصاحب هذه الحالة إذا وُعِظ يقول: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها متعذرة عليّ لذا فلست طامعاً فيها، أو لا يدعي الشوق للتوبة ولكن يقول: إن الله غفور رحيم، كريم فلا حاجة به إلى توبتي. إن هذا المسكين قد صار عقله رفيقاً لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٤ ص ٢٥١.

دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهواته. فصار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار، فمثله عند الله كمثل من قهر مسلماً وسلّمه إلى الكفار وجعله أسيراً عندهم، لأنه سخر ما كان حقه أن يستسخر، وسلط من حقه أن يتسلط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الدين، واستحق الكافر أن يكون متسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين.

في الحالة الثالثة: تكون الحرب سجالاً بين جند الهوى والإيمان، فتارة له اليد عليها والغلبة وأخرى لها عليه، وهذا الإنسان يعد من المجاهدين لا من الظافرين. وأهل هذه الحالة هم الذين: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1]. أما التاركون لمجاهدة الشهوات مطلقاً فهم يشبهون الأنعام بل هم أضل منهم، إذ أن الحيوان لم تُعطَ له القدرة والمعرفة التي بهما يجاهد الشهوات وهذا التارك للمجاهدة قد أعطيت له ولكن عطلها، فهو الناقص حقاً.

ولذلك قيل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

حاجة الإنسان إلى الصبر في كل الحالات

إن جميع ما يلقى على العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

١ ـ ما يوافق هواه.

٢ ـ ما لا يوافقه بل يكره.

وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كلاهما، إذن فهو لا يستغني عن الصبر قط.

■ النوع الأول: ما يوافق الهوى:

من الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا. فما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، لأنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة، فإن ذلك سيدفع به إلى البطر والطغيان. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1]. حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صدّيق. لذلك حذر الله

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

تعالى عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1] وقال أيضاً في آية أخرى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة محزنة»[3]، ولما نظر رسول الله ﷺ مرة إلى ابنه الحسين يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: «صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، إني لما رأيت ابني يتعثّر لم أملك نفسي أن أخذته»[4]، إن في ذلك عبرة لأولي الأبصار، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها:

١ ـ أن لا يركن إليها، لأنه يعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع عما قريب.

٢ ـ أن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللعب واللهو.

٣ ـ أن يرعى حقوق الله في ماله بالانفاق في سبيله، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه.

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا من خلال القيام بحق الشكر كما سيأتي. وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، فالجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرت الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها، لهذا عظمت فتنة السرّاء.

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٩.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٤.
(٣) الجامع الصغير.
(٤) السنن: النسائي ج٣ ص ١٠٨.

■ النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع:

وذلك لا يخلو:

١ ـ إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي.

٢ ـ أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب.

٣ ـ أو لا يرتبط أوّله باختياره ولكن له اختيار في إزالته، كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه. فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختيار العبد. وهي سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فهما إذاً ضربان:

١ ـ الطاعة: والعبد يحتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية وتشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه.

وما من أحد منا إلا وهو مهيأ لذلك في تعامله مع عبده أو خادمه أو أتباعه أو كل من هو تحت إمرته واستعباده، وما ذلك الغيظ والامتعاض الذي يظهر منا عند تقصيرهم في خدمتنا إلا دليلاً على إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء.

إذاً فالعبودية شاقة على النفس وصعبة. ومن العبادات ما هو مكروه بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد.

فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد، والمطيع يحتاج إلى الصبر على الطاعة في ثلاثة أحوال:

أ ـ قبل الطاعة:

وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات. وعقد العزم على الإخلاص والوفاء، وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد النفس.

ولقد نبّه رسول الله ﷺ إلى ذلك فقال: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى».

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، ولهذا السبب قدم الله الصبر على العمل فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2].

ب ـ حال الطاعة:

وذلك لكي لا يغفل عن الله أثناء أدائه لحق الطاعة ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، من خلال المداومة على الشروط والآداب حتى آخر العمل، فيلازمه الصبر عن الفتور حتى الفراغ من العمل. وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾[3] أي صبروا إلى تمام العمل.

ج ـ بعد الفراغ من العمل:

وهو يحتاج إلى الصبر عن إفشاء العمل والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطله ويحبط أثره كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[4].

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١١.

(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٣.

وفي آية أخرى قال: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[1] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى، فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما معاً، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[2]، فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هي المروّة وصلة الرحم، وكل ذلك يحتاج فيه إلى الصبر.

٢ ـ **المعصية**: وما أحوج العبد إلى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[3]، وقال رسول الله ﷺ: «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه». والمعاصي منشأها اتباع الهوى، وأشد أنواع الصبر عن المعاصي، هي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة ومعتادة. فإن العادة طبيعة خامسة فإذا أضيفت إلى الشهوة، حمل جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى، فلا يقوى باعث الدين على قمعهما.

وإذا كانت المعصية مما يسهل فعلها واجتراحها، كان الصبر عنها أثقل على النفس. كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار، وذكر الموتى بالقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم.

فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس. فللنفس فيه شهوتان أحدهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه، وبهما تتم له الربوبية

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

التي في طبعه وهي خلاف ما أمر به من العبودية والطاعة.

وإذا اجتمعت الشهوتان واعتاد الإنسان على تحريك اللسان، صعب عليه الصبر في هذه الحالة كثيراً، حتى يصل إلى مرحلة لا يعود يستنكر المعصية ولا يستقبحها لكثرة تكرارها والأنس بها. كالذي يلبس الحرير وهو يستبعد حرمته غاية الاستبعاد، ويطلق لسانه طوال النهار متناولاً أعراض الناس من غير أن يستنكر ذلك أيضاً رغم ما ورد في الخبر من: «إن الغيبة أشد من الزّنى».

إن الشخص الذي لا يملك لسانه في المحاورات، ولا يقدر على الصبر، يجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غير ذلك. فالصبر على العزلة أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

ويختلف الصبر شدة وضعفاً باختلاف المعاصي في قوتها وضعفها أيضاً. وما هو أدق من حركة اللسان في المعصية؛ حركة الخواطر باختلاج الوساوس، فلا جرم أن حديث النفس يبقى في حالة العزلة ولا يمكن الصبر عنه إلا بأن يغلب على القلب هم آخر من هموم الدين يستغرقه بالكامل حتى يصبح همه هماً واحداً. وإذا لم يصرف هذا الفكر أو حديث النفس إلى شيء معين ومحدد فلا يتصور ذهاب الوساوس وفتورها عنه.

القسم الثاني: ما لا يرتبط مجيئه باختياره وله اختيار دفعه. كما لو أوذي بفعل أو قول، أو اعتدي عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك يكون تارة واجباً وأخرى فضيلة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]. وقسّم رسول الله ﷺ مرة مالاً فقال بعض الأعراب من

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

المسلمين؛ إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فاحمرّت وجنتاه ثم قال: «رحم الله أخي موسى قد أوذي أكثر من هذا فصبر»(1).

وقال الله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(2)، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾(3)، وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾(4)، وقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(5).

ومدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال عز من قائل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾(6).

وقال رسول الله ﷺ: «صِلْ من قطعك واعط من حرمك واعف عمن ظلمك» وفي الإنجيل قال عيسى عليه السلام: «لقد قيل لكم من قبل: إن السنّ بالسنّ والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشرّ بالشرّ، بل من ضربك على خدك اليمنى فحوّل إليه الخدّ اليسرى، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن سخّرك لتسير معه ميلاً فسِرْ معه ميلين».

إذاً فكل هذه الروايات والآيات تأمر بالصبر على الأذى، لأن الصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر.

القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار في أوله وآخره.

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.
(٣) سورة المزمل، الآية: ١٠.
(٤) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧ ـ ٩٨.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء، وغيرها من سائر أنواع البلاءات التي يعد الصبر عليها من مراتب الصبر العالية، وليس من أعلاها لأن الصبر على العافية أشد وأفضل من الصبر على البلاء.

قال رسول الله ﷺ «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش»[1].

وفي فضل الصبر على المصائب أيضاً قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

وقال ﷺ أيضاً: «ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى: ـ إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللَّهم أجُرني في مصيبتي واعقبني خيراً منها ـ إلا فعل الله ذلك به»[2].

وعنه ﷺ أيضاً أنه قال: «إن الله عزَّ وجلَّ قال: يا جبرئيل ما جزاء من سلبت كريمته» قال: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال عزَّ وجلَّ: جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي»[3].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص ٩١.
(٢) صحيح مسلم: ج٣، ص ٣٧.
(٣) البخاري: ج٧، ص ١٥١.

وقال عليه السلام: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عوَّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتي»[1].

وقال داود عليه السلام: «يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك» قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان فلا أنزعه منه أبداً».

وقال داود لسليمان عليهما السلام: «يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات».

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «من إجلال الله تعالى ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك.

إن الإنسان إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمأكل، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنبها بالكامل ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى وعليه أن يعتقد أن فقدها من النعم وغيرها هي ودائع استرجعت بعد حين كما روي عن الرُميصاء أم سليم أنها قالت:

توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب، فقمت فسجيته في ناحية البيت حتى قدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل فقال: كيف الصبي فقلت: بأحسن حال بحمد الله ومنّه، فإنه لم يكن منذ اشتكى خيراً منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: وما

---

(١) الموطأ: ج٢، ص ٢٢٩.

لهم؟ قالت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم جزعوا. فقال: بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كانت عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: اللَّهم بارك لهما في ليلتهما.

قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن[1]. وروى جابر ان رسول الله ﷺ قال: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرُّميصاء امرأة أبي طلحة».

وقد قيل إن الصبر الجميل هو أن لا يُعرف صاحب المصيبة، فهو يشبه غيره. أما توجع القلب وفيضان العين فلا يخرجان الإنسان عن مقام الصابرين، لأن البكاء وتوجع القلب على الميت من مقتضيات البشرية وهما لا يفارقان الإنسان إلى أن يصل إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له: «أما نهيتنا عن هذا؟ فقال ﷺ: إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2]، بل إن ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً.

إذاً إن من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب، حتى قيل: من كنوز البرّ كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فظهر بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال.

■ كمال الصبر، الصبر على وساوس الشيطان:

ذكرنا أن الصبر أمر واجب وحتمي لكل سالك، ولكن لا ينبغي الاكتفاء بالصبر على الشهوات أو العزلة والانفراد وغيرها من الأمور التي تعد من الظاهر، بل نحتاج إلى نوع آخر من الصبر أكثر أهمية

---

(١) صحيح مسلم: ج٧، ص ١٤٥.
(٢) مجمع الزوائد: ج٩، ص ١٨.

وحساسية وهو الصبر على وساوس النفس الأمارة والشيطان وهي تعد من الباطن.

فالشيطان من المنظرين وهو لن يتوانى عن الوسوسة إلى يوم الدين إلا إذا أصبحت هموم الإنسان هماً واحداً. فإذا صار همك واحداً واشتغل قلبك بالله وحده فعندها لن يجد هذا الملعون سبيلاً إليك فتكون عند ذلك من عباد الله المخلصين الذين استثنوا من سلطنة هذا اللعين. فكل قلب مشغول بفكر مهم في الدين فسيخلوا من وساوس الشياطين، وإلا فمن غفل عن الله ولو للحظة فليس له قرين في تلك اللحظة إلا الشيطان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[1]، إذن حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عنها وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

كيفية الوصول إلى مقام الصبر

إن الصبر وإن كان شاقاً ولكن تحصيله ممكن بواسطة أمرين وهما:

١ ـ العلم.

٢ ـ العمل.

فالعلم والعمل هما المعجون الذي منه تركب أدوية الأمراض القلبية كلها. ولقد كان الصبر عبارة عن صراع باعث الدين مع باعث الهوى، وإذا أردنا لأحد المتصارعين أن تكتب له الغلبة فليس علينا إلا تقويته وإضعاف الآخر. إذاً فتحصيل الصبر يحتاج إلى تقوية باعث الدين وإضعاف باعث الهوى.

كيفية إضعاف باعث الهوى والشهوة:

إن سبيل إضعاف باعث الشهوة ثلاثة أمور:

الأول: أن يعمد الإنسان إلى قطع مادة قوة هذه الشهوات. كالأغذية الطيبة المحركة لبعض أنواع الشهوة، فلا بد من قطعها بالصوم مع الاقتصار عند الإفطار على الطعام القليل والضعيف، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: أن يعمد الإنسان إلى قطع الأسباب التي تؤدي إلى تهييج الشهوة. كالنظر، فإن النظر يحرك القلب والقلبُ يحرّك الشهوة. وقطع

هذه الأسباب تحصل بالعزلة وصرف النظر عن الوقوع على الأمور المحرّمة أو المشتهاة، والفرار منها بالكامل. فقد قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»[1]، وهذا السهم يسدده إبليس اللعين لكي يضل به الناس ويحرفهم عن جادة الصراط المستقيم، ولا ترس يحول دون نيل هذه السهام منا.

الصبر على حديث النفس والوساوس:

إن أشد أنواع الصبر كما ذكرنا من قبل؛ كف الباطن عن حديث النفس. وحديث النفس إنما يشتد على الإنسان ويقوى بعد قمع الشهوات وإيثار العزلة والجلوس للمراقبة والتفكر والذكر. فإن الوساوس في هذه الحالة تهجم على الإنسان من كل حدب وصوب ولا علاج لهذه الوساوس إلا بثلاثة أمور:

أ ـ الفرار من الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء، ثم الاعتزال بعد إحراز قدر يسير من القناعة والقوت.

ب ـ إن كل ذلك لا يكفي ما لم تصبح جميع الهموم منحصرة بالله تعالى، فلا يكون للإنسان هم إلا الله عز وجل.

ج ـ ثم إن غلبة هذا الهم الواحد على قلب الإنسان لوحده لا يكفي ما لم يتفكر هذا الإنسان ويسير بالباطن في ملكوت السماوات والأرض، وعجائب صنع الله وسائر أبواب معرفة الله. فإنه إذا استولى ذلك على قلبه أيضاً ذهبت عنه وساوس الشيطان والنفس.

أما إذا لم يكن من أهل التفكر والسير المعنوي والباطني، فعليه بالأوراد من قراءة القرآن والأذكار الخاصة والصلوات. ولكنه يحتاج مع

---

(١) المستدرك: أخرجه الحاكم، ج٤، ص ٣١٤.

ذلك إلى إجبار القلب ودفعه إلى الحضور، لأن التفكر بالباطن هو الذي يحقق حضور القلب دون الأوراد الظاهرة.

وإذا أدى الإنسان هذه الأمور الثلاثة لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها، لأنه لن يخلو في جميع أوقاته من حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر، وهي متنوعة:

■ **النوع الأول من الشواغل**: المرض، والخوف، وإيذاء الناس، وطغيان من مخالط، حيث إن الإنسان لا يستغني عن مخالطة من يعينه على بعض أسباب المعيشة.

■ **النوع الثاني من الشواغل**: وهي أكثر ضرورة من النوع الأول، كاشتغال الإنسان بالمطعم والملبس وأسباب المعاش. فإن تهيئة هذه الأمور سوف تشغله إن هو تولاها بنفسه، وإن تولاها غيره عنه فلا يخلو قلبه من الاشتغال بمن تولاها.

الثالث: تسلية النفس بما أبيح له من الأمور التي يشتهيها، فإن كل ما يشتهيه الطبع البشري ففي المباحات نصيب منه ما يغني عن المحظورات والمحرمات، كالنكاح الحلال. وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، لأن قطع الغذاء قد يؤدي بالضعف عن القيام بالأعمال الأخرى، كما أن قطعه قد لا يقمع الشهوة في أكثر الرجال.

كيفية تقوية باعث الدين:

إن تقوية باعث الدين إنما يكون بطريقين:

الأول: بواسطة العلم والتفكر. حيث يعمد إلى إطماع الإنسان بفوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك من خلال التفكر في الروايات والآيات التي تحدثت عن فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

الثاني: بواسطة العمل. من خلال مجاهدة الأهواء والشهوات، والعمل على خلاف ما تأمر به، حتى يجد المجاهد لذة الظفر فيتقوى أكثر على مخالفتها وجهادها. فالاعتياد على الأعمال الشاقة تزيد من قوة الإنسان وتحصّنه أكثر، لذا فمن عوّد نفسه على مخالفة الهوى غلبها، وأما لو ترك المجاهدة فسيضعف باعث الدين ولن يقوى بعدها على منازلة الأهواء والشهوات.

فهذا هو المنهج الذي ينبغي أن نتّبعه في العلاج لأجل تحصيل الصبر.

ولكن رغم هذه الشواغل والحوادث، يمكن للإنسان بعد قطع كل العلائق أن يسلم له أوقات كثيرة أيضاً إن لم تهجم عليه ملمّة ما أو واقعة. وفي هذه الأوقات يصفو القلب، ويسهل التفكر، وينكشف له من أسرار الله في ملكوت السماوات والأرض ما لا يقدر عليه لو كان مشغول القلب بالعلائق. والوصول إلى هذا المقصد هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من المقامات بالجهد والاكتساب.

ويبقى ما يكشفه الله وما يفيضه من لطفه فهو يجري بحسب الرزق المقدور، فقد يقل الجهد ويكثر اللطف وقد يطول الجهد ويقل الحظ.

ولكن ما هو معوّل عليه من وراء هذا الاجتهاد هو حصول الجذبة الإلٰهية التي توازي أعمال الثقلين، وحصول ذلك ليس باختيار الإنسان. نعم ما هو واقع تحت اختيار الإنسان هو تهيئة مقدمات هذه الجذبة من خلال قطع توجه القلب وانجذابه نحو الدنيا. فإن المجذوب نحو أسفل سافلين لا يجذب إلى أعلى عليين، وكل منهوم بالدنيا فهو مجذوب إليها، وبالتالي فهو محروم من الجذبة الإلهية؛ لذا قال ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها»[1]، وذلك

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١٠، ص ٢٣١.

لأن لهذه النفحات والجذبات الإلهية أسبابها السماوية، حيث قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا أعلى أنواع الرزق.

ولأن الأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري حتى ييسّر الله تعالى أسباب هذا الرزق، فما علينا إلا تفريغ القلب وانتظار نزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله. كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها ولكن كل ذلك لن ينفعه إلا بهطول المطر، ولكنه لا يدري متى يقدّر الله أسباب هذا المطر ويأذن له بالهطول، ولكنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته، وإنه لا تخلو سنة عن مطر.

وكذلك قلما تخلو سنة أو شهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات، لذا ينبغي على الإنسان السالك أن يطهر أرض قلبه من حشيش الشهوات، ويبذر فيه بذور الإخلاص والإرادة، ويعرضه لمهاب رياح الرحمة. وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم، كذلك ينبغي أن يقوى انتظار تلك النفحات والجذبات الإلهية في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان، فإن الهمم والأنفاس أسباب استدرار رحمة الحق تعالى.

بل إن استدرار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة من استدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من اقطار الجبال والبحار. لأن الأحوال والمكاشفات حاضرة معك وهي في قلبك ولكنك مشغول عنها بأهوائك وشهواتك، فصار ذلك حجاباً بينك وبينها. وأنت لا تحتاج إلا إلى قهر هذه الشهوة ومن ثم رفع الحجاب، لتشرق بعد ذلك أنوار المعارف من باطن قلبك.

ولأن هذه الحقائق والمكاشفات الغيبية حاضرة بالأصل في القلب ولكنها منسية ومغفول عنها بسبب الاشتغال بغير الحق عزّ اسمه، سمّى

الله تعالى جميع المعارف «تذكراً» فقال عزّ من قائل: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[2]. فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر.

■ الصبر على ملذات الدنيا:

إن الصبر عن الملذات والعلائق الدنيوية مقدم على الصبر عن وساوس النفس والشيطان، لأن النوبة لا تصل إلى حديث الباطن إلا بعد قطع العلائق الدنيوية. وأشد العلائق على النفس، حب الجاه، والرئاسة، والغلبة، والاستعلاء التي تعد من أعلى اللذات في الدنيا.

والسبب في ذلك يعود إلى أن هذه الصفات هي من صفات الله تعالى والربوبية، والإنسان بطبعه يحب الربوبية ويطلبها، بمعنى إنه يحب ويرغب في أن تتجلى فيه صفات الربوبية فيكون الحاكم ذو الرياسة المطلقة، وصاحب الغلبة والعلو والجاه و. . . والسرّ في ذلك هو أن الله تعالى خلق آدم على صورته كما جاء في الحديث، ونفخ فيه من روحه عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾. بل إن الإنسان مفطور على حب هذه الصفات الإلهية، والسعي للتحقق بها. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

ولا يذم القلب على حبه لهذه الصفات. إذ كيف يكون مذموماً وهو يطلب السعادة المطلقة، والبقاء الذي لا فناء فيه، والعز الذي لا ذلّ فيه، والأمن الذي لا خوف فيه، والغنى الذي لا فقر فيه، والكمال الذي لا نقص فيه، وهذه كلها من الأمور الفطرية، ومن أوصاف الربوبية.

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٧.

إذاً فليس مذموماً طلب كل ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب لا آخر له، وطالب الملك لا محالة طالب للعلو والعزّ والكمال، ولكن هنا علينا أن ننتبه إلى أمر في غاية الأهمية وهو أنه عندنا نوعان من الملك:

١ ـ ملك عاجل: يحصل في الدنيا، وهو مشوب بالآلام، ومتميّز بالزوال والانصرام.

٢ ـ ملك آجل: يحصل في الآخرة، وهو ملك مخلّد، دائم، لا يشوبه كدر ولا ألم، ولا يقطعه قاطع.

ولكن بما أن الإنسان خلق عجولاً وراغباً في العاجلة دائماً، وجاءه الشيطان مستفيداً من هذه العاجلة التي في طبعه ليزيّن له هذه الدنيا وليدفعه نحو تعميرها والانغماس بها، ويمنيه مع ملك الدنيا ملك الآخرة. فانخدع الإنسان بوساوس هذا اللئيم وانطوت عليه الحيلة، حتى اشتغل بطلب عزّ الدنيا وملكها على قدر إمكانه. وبإعراض الإنسان عن الآجلة وسعيه خلف العاجلة صار من المخذولين كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[1].

وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[3].

ولأجل استنقاذ الناس من حيل الشيطان ومكره، أرسل الله تعالى ملائكته إلى الرسل يوحون إليهم ما مرّ على الخلق من مصائب وأهوال

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٧.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠.

نتيجة انخداعهم بأضاليل هذا العدو الخبيث، وتفضيلهم الملك الموهوم على الملك الحقيقي، هذا الملك الزائل والفاني فنادوا فيهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

إن جميع الشرائع الإلهية إنما نزلت لأجل دعوة الخلق إلى الملك الدائم والخالد، ولكي يكونوا ملوكاً في الدنيا والآخرة.

١ ـ أما مُلك الدنيا: فيكون بالزهد والقناعة باليسير منها.

٢ ـ وأما مُلك الآخرة: فبالقرب من الله تعالى، ليصل عندها الإنسان إلى البقاء الذي لا فناء فيه، والعز الذي لا ذلّ فيه، وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا يعلمها إلا الله.

والشيطان إنما يدعو أتباعه إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة سيفوت فيما لو اشتغل الإنسان بملك الدنيا، لأن الدنيا والآخرة ضرتان. ولعلمه أيضاً بأن الدنيا لن تسلم له أيضاً ولو سلمت له لحسده عليها أيضاً.

وملك الدنيا لا يخلو من المنازعات، والمكدرات، وطول الهموم في التدبيرات، بالإضافة إلى التصرم والزوال، حيث قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ﴾[2].

وضرب الله لها مثلاً فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ﴾[3].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

ولما كان الزهد في الدنيا ملكاً حسده الشيطان عليه وصدّه عنه. لأن الزهد معناه أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين والإيمان، وهو ملك بالاستحقاق، إذ به يصير صاحبه حراً، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لباطنه وفرجه وسائر أعضائه فيكون مسخراً مثل البهيمة مملوكاً للشهوات تأخذه إلى حيث يريد الشيطان ويهوى.

ولقد قال بعض الملوك لزاهد: سل مني حاجة، فقال الزاهد: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك. فتعجب الملك وقال: كيف؟ قال الزاهد: من أنت عبده فهو عبد لي. أجاب الملك: وكيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت أنا هؤلاء كلهم؛ فهم عبيد لي. فهذا إذاً هو الملك الحقيقي في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة أيضاً. لذا أصبح المنخدعون بغرور الشيطان خاسرون في الدنيا والآخرة.

فإذا عرفت معنى الملك والربوبية وحقيقتها، ومعنى العبودية، وكيف يستذل الشيطان أتباعه، سهل عليك عند ذلك ترك ملك الدنيا الواهي، والجاه والإعراض عنهما، والصبر على ما فاتك منهما.

أما من تكشفت له هذه الحقيقة بعد أن أَلِف الجاه وأنس به، وصار معتاداً عليه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم، بل لا بد وأن يضيف إليه العمل وهو على ثلاثة أمور:

الأول: أن يهرب من موضع الجاه، كي لا يبتلى بأسبابه فيصعب عليه الصبر مع وجود هذه الأسباب. ومن لا يفعل ذلك يكون قد كفر نعمة الله في سعة الأرض، إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

الثاني: أن يقوم بالأعمال والأفعال التي تخالف ما اعتاد عليه، فيبدل زي الحشمة بزيّ التواضع مثلاً وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاد عليه وفاء بمقتضى جاهه؛ فينبغي عليه تبديلها بنقائضها حتى يترسخ ذلك في نفسه، ولا قيمة للعلاج إلا بهذه المخالفة.

الثالث: أن يراعي عند المخالفة نفسه فيتعامل معها برفق واعتدال وتدريج، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى درجات المخالفة العالية، لأن ذلك يؤدي بالنفس إلى النفور ومن ثم إلى ترك المخالفة والمجاهدة بالكامل. بل لا بد من مراعاة حال النفس فلا نحملها أكثر من طاقتها. فالانتقال ينبغي أن يكون بالتدريج بحيث إنه يترك بعض الأمور في البداية ويسلي نفسه بالبعض الآخر، حتى إذا تمكنت النفس من ترك هذا البعض ابتدأ بترك الآخر، وهكذا يتدرج في المخالفة فينتقل من مرحلة إلى أخرى حتى يقضي على جميع تلك الصفات التي ترسخت فيه. وإلى هذا الرفق والتدريج أشار رسول الله ﷺ بقوله: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[١].

وقال عليه السلام أيضاً: «لا تشادّوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه»[٢].

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص ٨٧.
(٢) السنن الكبرى: ج٣، ص ١٩.

القسم الثاني

الشكر

فضيلة الشكر

بيان فضيلة الشكر في الآيات:

قرن الله تعالى الشكر بالذكر في كتابه الكريم فقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[2]، وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[3]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[4].

وقال تعالى إخباراً عن إبليس اللعين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[5] وقيل: هو طريق الشكر، ولعلو مقام الشكر طعن هذا اللعين في الخلق فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[6].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[7].

ولقد وعد الله تعالى بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٧) سورة سبأ، الآية: ١٣.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، والشكر خُلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[2]، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[3] وقال أيضاً: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

بيان فضيلة الشكر في الروايات:

قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[5]، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينادي مناد يوم القيامة ليقم الحمادون، فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة. قيل: ومن الحمّادون؟ فقال: الذين يشكرون الله تعالى على كل حال»[6]، وقال ﷺ: «الحمد رداء الرحمن».

أوحى الله تعالى إلى أيوب في صفة الصابرين يقول: «دارهم دار السلام، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر استزيدهم..» ولما نزل من الكنوز ما نزل قال عمر: فأي المال نتخذ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً»[7].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»[8].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٥) أخرجه الترمذي تحت رقم ١٧٦٤.
(٦) المستدرك: أخرجه الحاكم، ج١، ص٥٠٢.
(٧) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ١٨٥٦.
(٨) الكافي: ج٢، ص٩٤، حديث ١.

وقال رسول الله ﷺ: «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة»[1] وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «من أُعطي الشكر أعطي الزيادة قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتم كلامه حتى يؤمر له بالمزيد»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً. قال: وكان رسول الله ﷺ يقوم على أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾»[4].

---

(١) الكافي: ج٢ ص٩٤.
(٢) المصدر السابق: ص٩٥، ح٨.
(٣) المصدر السابق: ص٩٥، ح٩.
(٤) المصدر السابق: ح٦.

كيفية تحقق الشكر

إن الشكر عدّ من جملة مقامات السالكين، وهو يتحقق من خلال ثلاثة أمور:

الأول: العلم: وهو معرفة أن الله تعالى هو المنعم الوحيد وأن كل النعم ترجع إليه.

الثاني: الحال: وهو الفرح الحاصل من إنعام المنعم.

الثالث: العمل: وهو القيام بما يحبه المنعم ويريده، والعمل يمكن أن يتعلق بالقلب وبالجوارح واللسان.

فالعلم هو الأصل الذي يورّث الحال والحال يورّث العمل. ولا بد أن نبيّن هذه الأمور الثلاث التي من خلالها يتحقق الشكر ويصبح واقعاً، والتي من خلالها أيضاً يحصل لدينا الإحاطة بحقيقة الشكر، وإن كان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

الأمر الأول: العلم:

وهو علم بثلاثة أمور:

١ ـ علم بالنعمة: ووجه كونها نعمة منه عزَّ وجلَّ.

٢ ـ علم بالمنعم: من خلال معرفة صفاته، التي بها يتحقق الإنعام، ومنها تصدر النعم.

٣ ـ المنعم إليه: وهو الذي تصل إليه النعمة.

وحقيقة الشكر في هذه المرتبة؛ أي مرتبة العلم لا تتم إلا بمعرفة أن النعم كلها من الله تعالى، وأنه هو المنعم الوحيد، وأن كل الوسائط مسخرة من قبله، وراجعة إليه، وهذا هو التقديس والتوحيد الحق. فالموحد هو الشاكر الحقيقي، والموحد هو الذي يعلم ويؤمن أن كل ما في هذا العالم هو فيض ونعمة من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه.

فكل من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن هذا الوجود بكل مظاهره مسخر بأمره كالقلم في يد الكاتب. فإذا عرفت ذلك فقد عرفت الله تعالى وكنت موحداً وقدرت عندها على شكره، بل كنت بمجرد هذه المعرفة شاكراً. ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: «إلهي خلقت آدم بيدك وأسكنته جنتك وزوجته حوّاء أمتك فكيف شكرك؟ فقال الله تعالى: علم أن ذلك مني فكانت معرفته شكراً».

إذن لا يتحقق الشكر إلا بعد أن تعلم أن الكل منه، فإن خالجك شك في ذلك لم تكن عندها عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم.

الأمر الثاني: الحال:

وهو مستمد من أصل المعرفة، وهو عبارة عن الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع. وهو أيضاً في نفسه وعلى تجرده شكراً كما أن المعرفة شكراً. ولكن الحال لا يكون شكراً إلا إذا كان متضمناً لشرطه، وشرطه أن يكون السرور والفرح بالمنعم لا بالنعمة. ونضرب على ذلك مثالاً: كالملك الذي يريد الخروج إلى السفر، فأنعم على أحد الأشخاص بفرس، ففي هذه الحالة يمكن أن نتصور فرح المنعم عليه بثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن يكون فرحه بنفس النعمة، وهو الفرس، من حيث إنه مال ينتفع به، ومركوب يوافق غرضه، وهو فرح لا حظ فيه

للملِك، بل غرضه الفرس فقط. وفي هذه الحالة لا معنى للشكر أصلاً، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس فقط.

الوجه الثاني: أن يكون فرحه بالنعمة أيضاً ولكن لا من حيث إنه فرس، بل من حيث يستدل به على عناية الملك واهتمامه به. بحيث إنه لو أعطاه شخص آخر غير الملك نفس هذه النعمة لما فرح بها أصلاً، لاستغنائه عن الفرس ولكون مطلوبه نيل المنزلة في قلب الملك. وهذا الوجه يمكن أن يكون داخلاً في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم. ولكن لا من حيث ذاته، بل من جهة معرفة عنايته التي ستدفعه الإنعام في المستقبل أيضاً. وهذا هو حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

الوجه الثالث: وهو الفرح بالنعمة لأجل ركوبها والخروج في خدمة الملك، فيتحمّل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه. وهنا يقع الشكر الحقيقي. ففرح العبد في هذه الجهة هو من حيث يتمكن من خلال نعم الله الوصول إلى القرب منه والنزول في جواره والنظر إلى وجهه. إذا فهدفه المنعم دون غيره. وهذ هي المرتبة العليا، وعلامتها أن لا يفرح الإنسان من الدنيا إلا بما هي مزرعة للآخرة ويعينه عليها. ويحزن على كل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله، لأن مطلوبه ليس نفس النعمة، بل ما يحمله على التقرب من المنعم ومشاهدته على الدوام. لذلك قال الشبلي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقال الخواص: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه مرتبة لا يدركها من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات، وخلا عن لذة القلب. فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله ومعرفته ولقائه. وإنما يمكن أن يلتذ بغير الله وذكره إذا ما

مرض قلبه، بسبب سوء اختياره وعاداته. كمن يلتذّ بأكل الطين، وكالمريض الذي يستبشع بعض الأصناف الحلوة، ويستحلي الأشياء المرّة.

الأمر الثالث: العمل:

وهو الفرح الحاصل من معرفة المنعم، وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح.

١ ـ أما الشكر بالقلب فيكون بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق.

٢ ـ وأما باللسان، فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه.

٣ ـ وأما بالجوارح، فباستعمال نعم الله في طاعته والوقاية من الاستعانة بها على معصيته. فشكر العينين أن تستر كل عيب تراه بمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه عن مسلم. والشكر باللسان لإظهار الرضا.

قال رسول الله ﷺ لرجل: «كيف أصبحت؟ فقال: بخير، فأعاد ﷺ السؤال. فأعاد الرجل حتى قال في الثالثة: بخيرٍ أحمد الله وأشكره. فقال ﷺ: هذا الذي أردت منك»[1].

إن كل عبد يسأل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت. فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين. وكيف لا تقبح إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء، والملك موجود وحاضر وبيده كل شيء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبتلي وهو القادر على إزالة البلاء، وذل العبد لمولاه عز والشكوى إلى الغير ذل، وإظهار الذل للعبيد مع كونهم أذلاء قبيح.

---

(١) الموطأ: ج٢، ص٢٣٩.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾(1).

وقال عز وجل أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(2).

قال الإمام الصادقعليه السلام: «شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله»(3).

وعنهعليه السلام أيضاً انه قال: «إنه خرج من المسجد وقد ضاعت دابته فقال: لئن ردّها الله عليّ لأشكرنّ الله حق شكره، قال الراوي: فما لبث أن أُتي بها فقال: الحمد للّه. فقال قائل له: جعلت فداك أليس قلت: لأشكرنّ الله حق شكره؟ فقال أبو عبد اللهعليه السلام: ألم تسمعني قلت: الحمد لله»(4).

وعنهعليه السلام قال: «شكر النعم اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرجل الحمد لله رب العالمين»(5).

وعنهعليه السلام أيضاً أنه سُئل: «هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قالعليه السلام: نعم. قلت: ما هو. قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال وإن كان فيما انعم عليه في ماله حقّ أدّاه. ومنه قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ ومنه قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وقوله: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

(3) الكافي: ج٢، ص٩٥، ح١١.

(4) المصدر السابق: ص٩٧، ح١٨.

(5) المصدر السابق: ص٩٥، ح١٠.

﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[1].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: «إذا ذكر أحدكم نعمة الله فليضع خدّه على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل وليضع خدّه على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه، وإن لم يقدر فليضع خدّه على كفّه ثم ليحمد الله على ما أنعم الله عليه»[2].

---

(١) الكافي: ج٢.

(٢) المصدر السابق: ص٩٨، ح٢٥.

تنزّه الله عن شكر العباد

صحيح أن الشكر عندما يقع في حق المنعم فإنه سيكون له حظ منه ينتفع به، فشكر ملك من الملوك إما أن يكون بالثناء عليه وتمجيده وهذا سيؤدي إلى انتشار صيته وزيادة جاهه، أو بخدمته وذلك سيكون سبباً لتكثير سواده وزيادة صيته أيضاً. ولكن هذا في حق الله تعالى، ملك الملوك محال لأنه عزَّ وجلَّ غني عن شكر عباده وتقريب ذلك بوجهين:

الوجه الأول: تنزيه الحق عن الحظوظ والأعراض.

إن الله منزّه عن الحظوظ والأغراض، وهو مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير السواد بالمثول بين يديه. إذ لا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها.

الوجه الثاني: إن جميع ما نتعاطاه باختيارنا هو نعمة أخرى من الله علينا. إذ إن جوارحنا وقدرتنا، وإرادتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا هي نعمة من الله علينا فكيف نشكر نعمته بنعمته.

فالشكر في حق المولى محال إذاً بهذين الوجهين:

■ صراط الشكر المستقيم:

لسائل أن يسأل أنه إذا وجب علينا أن نشكر الله على نعمه وفي

نفس الوقت الشكر في حق المولى محالٌ فكيف نستطيع الجمع بين هذين الأمرين؟

إن هذا السؤال قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام حيث قال: «يا ربّ كيف أشكرك وأنا لا استطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟

وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب عليّ الشكر لك؟

فأوحى الله تعالى إليه يقول: إذا عرفت هذا فقد شكرتني. وفي خبر آخر يقول: إذا عرفت أنّ النعم مني رضيت منك بذلك شكراً»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدّى شكرها»[2].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «من حمد الله على النعمة فقد شكره، والحمد أفضل من تلك النعمة»[3].

إذاً فالعلم باستمالة الشكر في حق المولى يعدُّ بنفسه شكراً أيضاً، بل من أعظم مراتب الشكر وأرفعها.

ولسائل هنا أيضاً أن يسأل؛ أنه كيف صار العلم باستحالة الشكر شكراً مع أن نفس هذا العلم هو نعمة أخرى من الله تعالى فكيف وقع الشكر؟

في الحقيقة إن إدراك سرّ هذه المسألة يحتاج إلى قرع باب من أبواب المعارف الإلهية، حيث يمكن أن نعالجه من خلال نظرتين:

---

(١) الكافي: ج٢، ص٩٨، رقم ٢٧.
(٢) المصدر السابق: ص٩٦، رقم ١٥.
(٣) المصدر السابق: رقم ١٣.

١ ـ نظرة بعين التوحيد المحض:

هذه النظرة مختصة بأهل التوحيد، حيث يرون أن الله تعالى هو الشاكر والمشكور، وأنه المحب والمحبوب، وهذا نظر من قد عرف أن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن ليس في الوجود غيره. لأن هذا الغير لا يتصور أن يكون له بنفسه قوام ولا وجود، لأن الموجود المحقق هو الموجود القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام، فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره، فهو إذاً موجود بغيره.

فالله تعالى هو القيوم ولا قيوم غيره، إذ ليس في الوجود غيره، فهو الواحد الصمد وإذا نظرت بهذه الرؤية علمت أن الكل منه صادرٌ وإليه راجعٌ، فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحبّ وهو المحبوب. والعرفاء يعبّرون عن هذه الحالة بفناء النفس، أي فناء الإنسان عن نفسه وعن غير الله، فلا يرى في هذه الحالة إلا الله تعالى.

٢ ـ نظرة من لم يبلغ مقام الغناء عن النفس:

وهؤلاء الذين لم يصلوا إلى مقام التوحيد ولم يخرجوا من مقام النفس على قسمين:

الأول: الذين لم يعترفوا إلا بوجودهم، وأنكروا أن يكون لهم ربّ يعبد. وهؤلاء هم العمي المنكوسون، وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا وجوده، وهو الحي القيوم؛ القائم بنفسه والقائم على كل نفس بما كسبت، ولم يكتفوا بأن نفوا وجود الحق تعالى بل أثبتوا أنفسهم. وهؤلاء المساكين لو نظروا جيداً لعلموا أنه لا وجود لهم وإنما وجودهم كان من حيث إنهم أوجدوا لا من حيث إنهم وجدوا، وفرق بين الموجود وبين الموجد، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد. فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيوم،

والموجد هالك وفانٍ، لذا كان كل من عليها فان، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الثاني: وهم ليس بهم عمًى ولكن بهم عور، لأنهم ينظرون إلى وجود الحق تعالى بعين واحدة. فهم لا ينكرون وجوده، ولكن لم يروا فناء هذا الوجود في الحق، فأثبتوا وجود موجود آخر مع الله تعالى ونسبوا الوجود إلى غير الحق تعالى أيضاً وهذا شرك.

والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلّون، والجاحدون لوجود الحق والمنكرون له هم أيضاً قليلون، أما المتوسطون الذين ينظرون إلى الوجود بعين واحدة، فهم الأكثرون، وفيهم من قد تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم، والدوام فيه عزيز.

■ نموذج من سلوك النبي ﷺ:

لما أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بطلب القرب؛ قيل له: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[1] فقال في سجوده: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

فقوله ﷺ: «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله، ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب وترقى من مقام مشاهدة الله إلى مشاهدة الذات فقال:

---

(١) سورة العلق، الآية: ١٩.

(٢) رواه مالك في الموطأ: ج١، ص١٦٧.

«أعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية أي فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فاراً من الله إليه، ومستعيذاً ومثنياً، ففني أيضاً عن مشاهدة نفسه، لأنه رأى ذلك نقصاناً فاقترب وقال: «أنت كما اثنيت على نفسك لا أحصي ثناء عليك». فقوله: «لا أحصي» خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدته. وقوله: «أنت كما أثنيت على نفسك» بيان أنه المثني والمثنى عليه، وأن الكل منه بدأوا وإليه يعودون، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى.

وهكذا فقد كانﷺ يرتقي من رتبة إلى أخرى، فكلما وصل إلى رتبة وجد أن ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه، فاستغفر لذلك وإليه الإشارة بقوله: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرّة» ولما قالت له عائشة: أليس قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود؟ وما هذا الجهد الشديد؟

أجابﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً» معناه أفلا أكون طالباً للمزيد من المقامات، فإن الشكر سبب الزيادة، حيث قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

حقيقة الشكر استعمال النعم فيما يحبه الله

■ المطيع هو الشاكر:

خلق الله تعالى الخلق وهم في ابتداء فطرتهم محتاجون إلى استعمال الشهوات لتدبير دنياهم ومعيشتهم فيها.

ولكن لما كان الاكتفاء بهذه الشهوات والانغماس فيها مبعّد عن هدف الخلقة السامي وهو القرب من الحق والفوز بلقائه، أفاض الله تعالى على عباده نعماً إذا أجادوا استعمالها وأحسنوا استخدامها وصلوا إلى أعلى درجات القرب. وقال الله تعالى متحدثاً عن قرب العباد وبعدهم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1].

فهذه النعم الإلهية رسل الله إلى خلقه لكي يترقوا بواسطتها من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ليصلوا إلى كمالهم الإنساني الحقيقي.

فإذا استعمل العباد هذه النعم في طاعة الله، فقد شكروا الله لموافقة ما عملوه محبة الله وإرادته فنالوا نصيبهم من الكمال والسعادة.

---

(١) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

وأما إذا استعملوها في معصيته فقد كفروا لاقتحامهم فيما يكرهه الله ولا يرضاه، فخسروا بذلك وضلوا ضلالاً بعيداً.

إذاً فكل ما خلق في هذه الدنيا من نعم إنما هي وسائل يتوصل بها العباد إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى. فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر لله، وكل عاص بقدر معصيته كافر بالله وسالك على خلاف محبته. والمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة (كما سنبين لاحقاً).

■ الشكر الحقيقي:

إن فعل الشكر وترك الكفران لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله، إذ معنى الشكر استعمال نعمه فيما يحبه، ومعنى الكفر إما ترك استعمال هذه النعم، أو استعمالها فيما يكرهه، ولتمييز ما يحبه الله عما يكرهه طريقان:

الأول: النقل. ومستنده الآيات والروايات. وهذا الطريق يبتنى على معرفة جميع أحكام الشرع. فالذي لا اطلاع له على أحكام الشرع، لن يتمكن من القيام بحق الشكر أصلاً.

الثاني: بصيرة القلب. وهو النظر بعين الاعتبار إلى الأمور، وهو طريق عسير وعزيز في آن واحد، ولذلك أرسل الله الرسل إلى خلقه، ليسهّل بهم الطريق، ويجعله ميسّراً للجميع. وهذا الطريق يبتنى على إدراك حكمة الله تعالى في خلقه. إذ ما من شيء في هذا الوجود إلا وفيه حكمة، وخلف هذه الحكمة يوجد قصدٌ ما، وهذا القصد هو المراد والمحبوب.

وهذه الحكمة منقسمة إلى قسمين:

١ ـ حكم جلية: كالعلم بأن حكمة خلق الشمس أن يحصل بها

الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً، وتكون الحركة للنهار والسكون لليل، وهذه إحدى حِكم خلق الشمس وفيها حكم أخرى كثيرة ودقيقة.

وكذلك معرفة الحكمة من الغيم ونزول المطر وغيرها...

فهذا العالم بسمائه وكواكبه وبحاره ورياحه وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته لا تخلو ذرّة من ذرّاته عن حِكم كثيرة.

٢ ـ حكم خفية: كخلق الدراهم والدنانير، فهي من نعم الله التي بها يتم قوام الدنيا وتدبير معيشتها. وهما حجران لا منفعة في عينهما ولكن الخلق مضطرون إليها من جهة أنهم محتاجون في تدبير معيشتهم إلى أمور كثيرة من مأكل وملبس وحاجات أخرى بعضها في متناول يدهم والبعض الآخر في حوزة أشخاص آخرين. ولأجل تأمين ما ينقصهم كان لا بد من إجراء عملية تبادل بين الطرفين، بحيث يقدم كل طرف ما عنده من بضاعة ويأخذ ما ينقصه من الطرف الآخر. ولكي تتم عملية التبادل هذه كان لا بد أيضاً من تقدير وتحديد مقدار العوض، فلا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا صاحب البيت منزله بكل مقدار من القباب وهكذا.. بل لا بد من وجود واسطة ما تحدد قيمة كل عوض، حتى إذا عُرفت مقادير الأمور وقيمتها، أصبح البيع والشراء واضحاً ويسيراً. وهذه الواسطة هي النقود، فقد خلق الله تعالى الدراهم والدنانير حاكمين ومتوسطين حتى تقدر بهما القيمة ويتوسل بهما إلى سائر الأشياء غير المملوكة. فهذه إحدى الحكم الخفية من خلق النقود، وفيها حكم أخرى يطول ذكرها. فكل من عمل فيها عملاً لا يليق بالحكمة التي خلقت لأجلها فقد خالف الغرض المقصود وكفر بنعمة الله. ومن كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما. حتى وعد الله أصحاب هذا الفعل بالعذاب الأليم فقال عز من قائل:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1]، وكذلك من عامل معاملة الربا على النقود فقد كفر بنعمة الله وظلمها.

وهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين، وكل ما خلق لحكمة لا ينبغي أن يصرف عنها، ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. ولكن ما يحول دون وصول هذه الحكمة وإدراكها هم شهوات النفس والشياطين لذا قال رسول الله ﷺ: «لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

■ المكروهات كفران للنعمة:

وإذا عرفت هذه الأمثلة فقس عليها حركاتك وسكناتك وكل فعل صادر عنك، فإنها إما شكر وإما كفران ولا يتصور أن تنفك أعمالك عنهما. وهذا الكفر هنا هو نفسه ما يعبّر عنه بلسان الفقه بالكراهة، وبلسان أهل القلوب بالحظر. فمن أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزها وأمسكها عن عباد الله، وكل من يحتاج إليها، فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته، وهذه الأموال وسيلة الخلق إلى طاعة الله.

نعم ما نذكره هنا لا يدخل في حد فتاوى الفقه، لأن مقادير الحاجات عند عوام الناس خفية، والنفوس في استشعار الفقر مختلفة، وأواخر الأعمار بالنسبة إليهم غير معلومة، لذا كان تكليف العوام يجري مجرى تكليف الصبيان، لأنهم بحكم نقاضهم لا يطيقون تلك الأحكام. لذلك أبيح لهم حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكوات، لضرورة ما جبلوا عليه من البخل. ولكن دون أن يدل ذلك على أنه غاية

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

الحق، وقد أشار القرآن إلى ذلك، إذ قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾(١).

بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه؛ هو أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم، وخارج عن مقصود الحكمة وكافر بنعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عُرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة.

وكأمثلة أخرى على شكر النعمة وكفرانها يمكن أن نذكر مثلاً: أنك لو استنجيت باليمين فقد كفرت بنعمة اليدين. إذ خلق الله تعالى لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الآخرى فاستحق الأقوى التشريف والتفضيل، وأما تفضيل الناقص فهو خلاف العدل والله لم يأمر إلا بالعدل.

وكذلك مثلاً لو بزقت في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت بنعمة الله في خلق الجهات، وخلق سعة العالم ليكون عندك متّسعٌ في حركتك. وقسّم الجهات إلى جهات غير شريفة وأخرى شريفة بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه، استمالة لقلبك وبدنك وأنت تعبد ربك.

وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت، لأن الخف وقاية للرِّجل، وللرّجل استعمالات مختلفة والبداية ينبغي أن تكون بالأشرف، فهو العدل والوفاء بالحكمة.

وهذا كله عند العارفين يعتبر من الكبائر، وإن سماه الفقيه مكروهاً. لأن الفقيه لا يقدر على الدخول إلى هذا العمق لأنه مبتلٍ

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٧.

بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام.

فكل ما راعاه الأنبياء﷩ والأوصياء من الآداب وتسامحنا به في الفقه مع العوام، فسببه الضرورة وهي رعاية حال العوام وعدم دفعهم للقيام بما لا يطيقونه. وإلا فكل هذه المكاره هي تخلف عن العدل وكفران بالنعمة، وحرمان من درجات القرب. نعم إن بعض هذه الأعمال المكروهة ما يؤدي إلى حرمان العبد من بعض مراتب القرب، وبعضها الآخر يمكن أن يؤدي إلى خروجه بالكامل عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين.

فمن كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة ومن غير غرض صحيح فقد كفر بنعمة الله في خلق الأشجار وخلق اليد. أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة، وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى ليبلغ منتهى نشوئه فينتفع به عباده. وكسره قبل منتهى بلوغه على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل.

وعليه كل من فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات، قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات، ثم لا تفي إلا بالقليل. وما ذكرناه كاف ليعلم صدق قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] وفرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦.

الشكر عند الموحدين

حتى الآن صار معلوماً لدينا أن لله حكمة في كل شيء، وأنه جعل أفعال العباد سبباً لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، فكل فعل وافق الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة منها فهو كفران. ولكن لسائل أن يسأل هنا أن نفس فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرّة وكافراً أخرى؟.

في الحقيقة إن جواب هذا السؤال مستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها، ونشير الآن بعبارة وجيزة عن آخرها:

إن لله سبحانه في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبّر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات من أن يمتد طرفهم إلى مبادىء إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها أن يستعيدوا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة

تفهم وتبين شيئاً من حقيقتها، فاستعاروا لها اسم «القدرة». فقالوا لله صفة تسمى القدرة، منها يصدر الخلق والاختراع.

ثم إن الخلق متنوع في الوجود ومنقسم إلى أقسام كثيرة لكل منها صفات وخصائص خاصة، ومصدر تنوع الخلق وتعدد أقسامه واختصاصها بصفات خاصة؛ صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة «المشيئة».

ثم انقسمت الأفعال الصادرة عن القدرة إلى:

١ ـ ما يصل إلى غاية حكمتها.

٢ ـ وإلى ما يقف دون الوصول إلى هذه الغاية.

وكان لكل واحد منهما نسبة إلى صفة المشيئة، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة «المحبة». واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة «الكراهة».

ثم انقسم عباد الله تعالى إلى:

١ ـ إلى من سبقت لهم في المشيئة الأزلية أن يستعملهم الله تعالى لاستيقاف حكمته دون الوصول إلى غايتها، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم.

٢ ـ إلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم الله تعالى لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور.

فكان لكل واحد من الفريقين نسبة خاصة إلى المشيئة، فاستعير للمستعملين في إتمام الحكمة عبارة «الرضا». واستعير الذين استوقف بهم الحكمة دون غايتها عبارة «الغضب».

ومن ظهر عليه الغضب في الأزل استعير له عبارة «الكفران» وأردف ذلك بنقمة اللّعن والمذمَّة زيادة في النكال.

ومن ظهر عليه الرضا، حيث ارتضاه الحق تعالى في الأزل استعير له عبارة «الشكر» وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول.

فكان الحاصل أن الله تعالى أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبّح وأردى، وكان مثاله: أن ينظف الملك عبده من الأوساخ ثم يكسيه من محاسن ثيابه، فإذا تمم زينته قال: يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك، فيكون الله تعالى في الحقيقة هو المجمّل وهو المثني على الجمال، وكأنه لم يثن في الحقيقة إلا على نفسه، والعبد كان هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فقط. فهكذا كانت الأمور في أزل الآزال، وهكذا تسلسل الأسباب والمسببات بتقدير ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب، ولم يكن ذلك عن اتفاق وحظ بل إرادة وحكمة وجزم استعير له لفظ «القضا».

وقيل: إنه كلمح البصر، ففاضت عندها بحار المقادير بحكم ذلك القضاء، واستعير لترتب المقدورات بعضها على بعض بلفظ «القدر». فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية. لذا لم يكن شيء في هذا الوجود خارجاً عن قضاء الله وقدره.

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما. وهذه أمور نسبة معرفتها والسير فيها كنسبة المشي على الماء إلى السباحة.

فالسباحة يمكن أن تتعلم أما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل لرسول الله ﷺ: إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء، فقال ﷺ:

«لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء».

هذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران، وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك لتقريب الأمر إلى أفهام الخلق. فقال عز من قائل إنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم. ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبرائيل وهو روح القدس والأمين وهو عنده مطاع مكين، ويبغض الآخر وهو إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين. ثم أحال الإرشاد والهداية إلى جبرائيل فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[1] وقال: ﴿ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2].

وأحال الإغواء والإضلال إلى إبليس فقال عز وجل: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[3]. والإغواء هو منع العباد دون بلوغ غاية الحكمة. فانظر كيف نسب الإغواء إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد إلى العبد الذي أحبه. ولا تظن أن نسبة هذه الأفعال إلى عباده تعني أنها أصبحت فعلها هي دون فعل الله، فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى خلقه بل هو الذي هيأ الأسباب فخصص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل. وإن عدله تارة يتمّ بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم بك فإنك أيضاً سن أفعاله، فقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك هي فعله الذي رتّبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال العادلة، إلا انك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشاهدة والظاهر ليس له سبب في عالم الغيب والملكوت. وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبذ الذي يخرج دمًى من وراء الحجاب ترقص وتزعق، تقوم وتقعد، وهي خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط دقيقة رؤوسها مثبتة في يد المشعبذ ولكنها

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٥.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٨.

لا تظهر في ظلام الليل. وهذا المشعبذ محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون ظناً منهم أن هذه الخرق هي التي ترقص وتلعب. أما العقلاء فيعلمون أن هناك من يحرك هذه الدُمى ولكن ربما لا يعرفون الكيفية، وإن وجد من عرف شيئاً عن كيفية تحريك هذه الدُمى ولكن ليس بنفس الكيفية والتفصيل التي يعلمهما المشعبذ نفسه.

وكذلك أهل الدنيا والخلق كلهم هم صبيان ـ إلا العلماء ـ ينظرون إلى المخلوقات فيظنون أنها متحركة بنفسها فينسبون الحركة إليها. أما العلماء فيعلمون أن هذه المخلوقات مُحركة، وأنه يوجد من يحركها ولكن دون أن يعرفوا كيفية هذا التحريك وهم الأكثرون، إلا العرفاء والعلماء الراسخون، فإنهم أدركوا بقوة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها متدلية من السماء وأطرافها مثبتة بمخلوقات أهل الأرض، ولكن هذه الخيوط لدقتها لا تدرك بهذه الأبصار المادية الدنيوية. ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط معلقة بمناطات لها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المتحركين للسماوات، وشاهدوا أبصار ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل إليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلوا ما يؤمرون. وعُبِّر عن هذه المكاشفات في القرآن الكريم فقيل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] وعُبّر عن انتظار ملائكة السماء لما ينزل إليهم من الأمر والقدر فقيل: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[2].

وهذه آيات لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى والراسخون في العلم.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

أنواع النعم واللذات

إن النعمة هي التي يعبّر بها عن كل لذيذ، واللذات بالنسبة للإنسان على ثلاثة أنواع:

١ ـ لذة عقلية.

٢ ـ لذة بدنية مشتركة مع بعض الحيوانات.

٣ ـ لذة بدنية مشتركة مع جميع الحيوانات.

١ ـ اللذة العقلية:

أما اللذة العقلية؛ فكالعلم والحكمة التي لا يستلذ بهما السمع والبصر والشم والفرج ولا البطن، إنما يستلذ بهما القلب لاختصاصه بصفة يعبّر عنها بالعقل وهي أندر اللذات وأكثرها شرافة.

أما ندرتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم والحكمة لا يستلذها إلا حكيم، وما أقل العلم والحكمة وما أكثر المتسمّين باسمهما.

وأما شرفهما فلأنهما دائمين لا يزولان لا في الدنيا ولا في الآخرة، بعكس الطعام فإنه عند الشبع يترك جانباً، وكذا شهوة الجماع يفرغ عنها عند تلبيتها، أما العلم والحكمة فلا يتصور لهما حد ينتهى إليه.

والعلم والعقل لا يحتاجان إلى أعوان وحفظة بخلاف المال، إذ

العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به، والمال يسرق بخلاف العلم فإنه لا تمتد إليه أيدي السّراق فيكون صاحبه في أمن دائماً وصاحب المال في كرب وخوف من الفقدان.

■ وأما سبب قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم:

- فإما لعدم الذوق: لأن من فقد الذوق لم يعرف ولم يشتق.

- وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم: بسبب اتباع الشهوات والأهواء.

- وإما لقصور فطنتهم: إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذّون بالعلم، كالطفل الذي لا يستلذ إلا باللبن فلا يدرك لذة العسل.

فالقاصرون عن إدراك لذة العلم والحكمة إذاً ثلاثة:

١ - من لم يحيَ باطنه بعد؛ كالطفل.

٢ - من مات بعد الحياة باتباع الشهوات.

٣ - من مرض بسبب اتباع الشهوات: وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إشارة إلى مرض القلوب لفقدان العقول.

وأما قوله ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ إشارة إلى أولئك الذين لم تمت الحياة الباطنية عندهم.

إن كل من أحيا بدنه مع الغفلة عن حياة القلب هو عند الله من الموتى، وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزَقون مع أنّ أبدانهم ميّتة.

٢ - لذة يشارك فيها الإنسان بعض الحيوانات:

كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء وهي موجودة عند الأسد والنمر وبعض الحيوانات الأخرى.

٣ ـ لذة يشارك فيها سائر الحيوانات:

كلذة البطن والفرج وهي موجودة عند جميع الحيوانات وهي أخس أنواع اللذات ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات.

وهذه اللذة أشد التصاقاً بأصحاب الغفلة الذين انغمسوا في شهوات الدنيا والبدن حتى عموا عن الحق.

■ اللذة الحقيقية:

إن أصحاب اللذة الثانية والثالثة محجوبون عن اللذة الواقعية والحقيقية وهي لذة العلم والحكمة؛ لاسيما لذة معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته وأفعاله. وهذه هي مرتبة الصديقين التي لا يصل إليها إلا من أخرج حب الرئاسة من قلبه لذا قيل: «آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة»، ومن سيطر على شهوة البطن والفرج ومنعها من الإسراف بسلوك طريق الشريعة والاعتدال.

أما قمع شهوة البطن والفرج وإخمادها بالكامل حتى لا يقع منها الميل والإحساس فهو خارج عن قدرة البشر وخلاف البشرية أيضاً.

إذاً لذة معرفة الله تتحقق عندما يتلاشى الإحساس بلذة الرئاسة والغلبة. ولكن في بعض الأحيان قد لا يدوم هذا الإحساس بلذة معرفة الله طويلاً بل تعتريه فترات ثم يعود صاحبها إلى الصفات البشرية ولكن دون أن تقهره هذه الصفات أو تسيطر عليه بالكامل.

ويمكن على ضوء هذا أن نقسم القلوب إلى أربعة أقسام:

١ ـ قلب لا يحب إلا الله ولا يستريح إلا باللجوء إليه ومعرفته والتفكر فيه: ووجود مثل هذا القلب وإن كان ممكناً ولكنه في غاية البعد.

٢ ـ قلب لا يدري ما لذّة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته تكون بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، والدنيا طافحة بمثل هذا النوع من القلوب.

٣ ـ قلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والتفكر فيه، ولكن قد تعتريه في بعض الأحيان حالات الرجوع إلى الأوصاف البشرية.

٤ ـ قلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ولكن تعتريه في بعض الأحيان حالات التلذذ بالعلم والمعرفة: والنوع الثالث والرابع وإن كانا موجودين ولكن في غاية الندرة وتتفاوت هذه الندرة بين القلة والكثرة.

وإنما كانت القلوب التي تأنس بالله وبالتفكر فيه ومعرفته قليلة، لأنها أسباب ملك الآخرة والملك عزيز والملوك قلة وليسوا بكثر، فكما لا يكون الفائق في الملك الجمال إلا نادراً، كذلك ملك الآخرة.

وهذه الدنيا هي مرآة الآخرة، فهي عالم الشهادة والآخرة عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، وعالم الملك والشهادة حاكٍ عن عالم الغيب والملكوت. ومِن الناس من لا ينظر إلى عالم الملك والشهادة إلا نظرة اعتبار فيعبر منه إلى عالم الملكوت ويسمى عبوره عبرة وقد أُمِر الناس به حيث قال عز وجل: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ ومن الناس من عميت بصيرته فلم يعتبر، بل حبس نفسه في عالم الملك والشهادة، وهؤلاء سوف تفتح لهم من سجنهم هذا أبواب جهنم الممتلئة ناراً، هذه النيران تطلع على الأفئدة، ولكن أهل الدنيا لا يشعرون بها ولا يدركون ألمها لأنه يوجد بينهم وبينها حجاب، فإذا ماتوا رفع هذا الحجاب. إن الجنة والنار مخلوقتان، ولكن الجحيم مرّة تدرك بإدراك يسمى علم اليقين وأخرى بإدراك يسمى عين اليقين. أما عين اليقين فلا

يكون إلا في الآخرة، وأما علم اليقين فقد يكون في الدنيا ولكن فقط للذين كان لهم حظ في نور اليقين. لذلك قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ فقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ أي لترونها في الدنيا، وقوله ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي في الآخرة.

وبهذا يتبين لنا أن القلب السليم والصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً.

سعادة الآخرة هي النعمة الحقيقية

إن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر يسمى نعمة. ولكن النعمة الحقيقية هي السعادة الأخروية وتسمية ما عداها نعمة وسعادة إما خطأ واشتباه وإما استعمال مجازي، كإطلاق كلمة السعادة على الأمور والملذات الدنيوية. فإن ذلك خلط واشتباه. وكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها فإن تسميته نعمة صحيح أيضاً لأنه يفضي إلى النعمة الحقيقية.

وبعبارة أخرى تنقسم النعم إلى:

١ ـ نعم مطلوبة لذاتها.

٢ ـ نعم مطلوبة لأجل الغاية.

أما الغاية فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور:

أ ـ بقاء لا فناء له.

ب ـ سرور لا غم فيه.

ج ـ علم لا جهل معه.

د ـ غنى لا فقر بعده.

فالآخرة إذاً هي السعادة الحقيقية لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا

عيش إلا عيش الآخرة»[1] وفي إحدى المرات قال رجل: اللَّهم إني اسألك تمام النعمة.

فقال النبيﷺ: وهل تعلم ما تمام النعمة؟

قال الرجل: لا.

فقالﷺ: تمام النعمة دخول الجنة[2].

أما النعم التي يمكن أن تكون طريقاً إلى الآخرة فهي على أربعة أنواع:

النوع الأول: الفضائل النفسية:

وهي ترجع إلى الإيمان وحسن الخلق.

وينقسم الإيمان إلى:

١ ـ علم المكاشفة: وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله.

٢ ـ علوم المعاملة والأخلاق: وهي بدورها تنقسم إلى:

أ ـ العفة: وهي ترك أسباب الشهوة والغضب.

ب ـ العدالة: وهي مراعاة العدالة مع النفس عند الكف عن أسباب الشهوات أو الإقدام عليها. بحيث لا يكون هناك إفراط ولا تفريط. فلا يكون هناك امتناع كامل عنها ولا إقدام مفرط وعشوائي إليها. بل يكون إقدام الإنسان وإحجامه عن الشهوات تابع لميزان الشرع والعدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله محمدﷺ حيث قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا

(١) صحيح مسلم: ج٥، ص١٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي: ج١٣، ص٥١.

ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾[1] فمن أخصى نفسه ليقضي على شهوة النكاح، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان. وفي المقابل؛ من انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان. وإنما العدل تخلو من الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان.

النوع الثاني: الفضائل البدنية:

وهي على أربعة أقسام:

١ ـ الصحة.

٢ ـ القوة.

٣ ـ الجمال.

٤ ـ طول العمر.

ولا شك أننا بحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بهما. ولذلك قال عليه السلام:

«أفضل السعادات طول العمر في طاعة اللّٰه».

والبدن إذا كان سليماً خالياً من الأمراض الشاغلة فإنه سيعين صاحبه على أعمال الخيرات والطاعات بخلاف لو كان عليلاً سقيماً.

وكذا الجمال فإنه لا يخفى نفعه على أحد. فالقبيح مذموم والطباع عنه نافرة بخلاف الجميل الذي تكون حاجاته أقرب إلى الإجابة وجاهه في الصدور أوسع، فالجميل يمكنه القيام بحاجات وأعمال لا يقدر عليها القبيح في كثير من الأحيان، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٨ ـ ٩.

فعين على الآخرة بواسطتها. كما أن الجمال يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تمّ إشراقه انعكس على البدن أيضاً. ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن، وقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن، لذلك يظهر فيها أثر الغضب والسرور والغم. لذا قال رسول الله ﷺ:

«اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»[1].

وليس المقصود بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة، وإنما المقصود ارتفاع القامة والاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتقاسيم الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليها.

النوع الثالث: النعم الملحقة بالبدن وهي أربعة:

١ ـ المال.

٢ ـ الجاه.

٣ ـ الأهل.

٤ ـ كرم العشرة.

وجه الحاجة إلى هذه النعم غير خافٍ على أحد فضلاً عن كونها طريقاً معيناً على تحصيل الآخرة. فهذه النعم هي بمثابة الآلة المسهلة للوصول إلى المقصود.

أما بالنسبة للمال؛ فلأن الفقير في طلب العلم والكمال ومن ليس معه كفايته كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، وكبازي يروم الصيد بلا جناح. لذا قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[2].

---

(١) أخرجه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن عائشة.

(٢) أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن العاص.

وقال أيضاً: «نعم العون على تقوى الله المال»[1].

وكيف لا يكون ذلك ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت وتهيئة اللباس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة. وقد يتعرض من حرم المال إلى أنواع من التأذي تشغله عن الله والذكر وهي لا تندفع إلا بسلاح المال. كما إنه يمكن أن يحرم من فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات.

قيل إن أحد العلماء سئل: ما النعيم؟ فقال: الغنى فإني رأيت الفقير لا عيش له، قيل زدنا. قال: الأمن؛ فإني رأيت أن الخائف لا عيش له، قيل زدنا، قال: العافية فإني رأيت أن المريض لا عيش له، قيل زدنا، قال: الشباب، فإني رأيت أن الهرم لا عيش له.

وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن حيث إنه معين على الآخرة صار نعمة. لذا قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم معافى في بدنه، آمناً في سربه عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[2]، وأما الأهل والولد الصالح، فلا يخفى أيضاً وجه الحاجة إليهما، إذ قال ﷺ: «نعم العون على الدّين المرأة الصالحة»[3].

وقال في الولد: «إذا مات العبد المؤمن انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له...»[4]، أما الأقارب فإنه كلما كثر أقارب الرجل تيسرت له بسببهم الأمور الدنيوية، وتمكن من القيام بالأعمال بشكل أسهل وأسرع، بخلاف ما لو كان منفرداً فإن شغله بها سيطول أكثر. وأما العزّ والجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغني

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر.
(٢) أخرجه البخاري في الآداب.
(٣) الكافي: ج٥، ص٣٢٧.
(٤) أخرجه مسلم.

عنه المسلم، لأنه لا ينفك عن عدوٍ يؤذيه، أو ظالم يشوش عليه عمله.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1]. ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عن نفسه. فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، ولباس يدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته احتاج أيضاً إلى من يدفع به الشرّ عن نفسه.

ولسائل أن يسأل أنه كيف أدخلنا المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم والحال أن الله تعالى ذمّها وكذا سوله ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[3]، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في ذم النسب: «الناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرىء ما يحسنه»[4]، فما معنى عدّ هذه الأمور من النعم مع كونها مذمومة شرعاً؟

والجواب: إن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة والمأوّلة، والعمومات المخصصة لم يكن خطر الانحراف والضلال عنه ببعيد، إلا أن يهتدي بنور الله إلى إدراك حقائق الأمور على ما هي عليه. فهذه نعم معينة على أمر الآخرة ولا سبيل إلى جحد هذه الحقيقة إلا أنّ فيها فتناً ومخاوف.

فمثل المال كالحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقعٌ، فإن تمكن الإنسان من معرفة وجه استخراج الترياق مع الاحتراز من السمّ كانت

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٥.

(٤) تحف العقول: ص٢٠١.

نعمة. وأما لو أصابه السمّ كانت بلاء ونقمة. وهو أيضاً كالبحر الذي يختزن في جوفه اصناف الجواهر واللآلىء، فمن ظفر بالبحر وكان عالماً بالسباحة وطريق الغوص والاحتراز من مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه، وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك. لذلك مدح الله المال وسماه خيراً، ومدحه رسول الله ﷺ حيث قال: «نعم العون على تقوى الله المال». كما مدح الله الجاه والعزّ حيث منّ على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله، وحبّبه في قلوب الخلق وهذا هو معنى الجاه.

ولكن المنقول في مدح هذه النعم قليل وفي ذم المال والجاه كثير، حيث ذمّ الرياء وهو المقصود بجلب القلوب. والسبب في ذلك يعود إلى أنّ أكثر الناس جاهلون بطريق الإستفادة من هذه النعم بالشكل الصحيح لذا وجب تحذيرهم لكي لا يهلكوا بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه، أو بتمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره. فالغوّاص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده الذي لا يجيد السباحة لاتّبعه وهلك، لذا وجب عليه أن يحذر الصبي ويمنعه من الدخول في الماء وإن لم ينزجر فوجب على الأب أن يبعده عن الشاطىء. وكذلك هي هذه الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام، فهم قد بعثوا لكي يحذروا الناس ويهدونهم سبيل الرشاد، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت وما فضل عنهم لم يمسكوه بل أنفقوه. ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا لمالوا فيه إلى الإمساك ولم ينفقوا، لذلك قبحت الأموال، أي بمعنى تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها، والاستزادة من نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها. أما اخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل منها بالخيرات فليس مذموماً، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر. أما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الناس فلا بأس بالاستكثار.

إذن النعم الدنياوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها، ومرجوّها

بمخوفها، ونفعها بضرّها، فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقترب منها متقياً داءها ومستخرجاً دواءها. ومن لا يقدر على ذلك فالابتعاد والفرار عن مظان الأخطار أولى وأحسن.

النوع الرابع: النعم التوفيقية للنفس وهي أربعة:

١ ـ الهداية.

٢ ـ الرشد.

٣ ـ التسديد.

٤ ـ التأييد.

إن التوفيق من النعم التي لا يستغني عنها أحد وهي عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره. وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة. ولكن جرت العادة على تخصيص اسم التوفيق بما يناسب العادة. ولا أحد يشك في الحاجة إلى التوفيق ولذا قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

١ ـ الهداية:

أما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها، لأن الإنسان أثناء سيره نحو الآخرة قد ينحرف عن جادة الحق فيظن الفساد صلاحاً، ومن دون نعمة الهداية كيف يمكن أن يصحح وجهته ويعود مجدداً إلى صراط الحق المستقيم، فالإرادة والقدرة لا فائدة منها ولا نفع إلا بعد الهداية. لذلك قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] وقال عزّ من قائل أيضاً: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[1].

وللهدايا ثلاثة منازل:

الأول: معرفة طريق الخير والشر:

المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[2].

وقد أنعم الله به على كافة عباده من خلال:

١ ـ العقل.

٢ ـ بعث الأنبياء والرسل.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3].

الثاني: معرفة طريق المجاهدة:

وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال وهي ثمرة المجاهدة بعد الهداية إليها، حيث قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4].

وقال عزّ من قائل:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[5].

الثالث: النبوة والولاية:

وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة، وهي الهداية المطلقة وما عداها حجاب ومقدمات له،

---

(١) سورة النور، الآية: ٢١.

(٢) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٥) سورة محمد، الآية: ١٧.

فيهتدي الإنسان إلى ما لا يصل إليه لا بالعقل ولا بالعلم. وهذه المرتبة من الهداية هي التي شرفها بأن نسبها إليه وإن كان الكل حاصلاً من جهته حيث قال:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[1].

وهو الذي سمي بالحياة في قوله تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[2].

وبشرح الصدر في قوله:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[3].

٢ ـ الرشد:

ونعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فتقويه على ما فيه صلاحه وتثنيه عما فيه فساده، وهذا يجري في الباطن. كما قال الله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[4].

فالرشد عبارة عن هداية تبعث بالإنسان إلى السعادة وتحركه نحوها، وهو أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهو نعمة عظيمة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة الزمر، الآية ٢٢.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٥١.

٣ ـ التسديد:

وهو توجيه الأفعال والحركات نحو الهدف المطلوب مع تيسير وتسهيل سبل الوصول ليكون الوصول إليه أسرع. فالهداية لوحدها لا تكفي، بل لا بد من هداية أخرى محركة بحيث إنها تحرك الإنسان للمضي قدماً نحو الغاية المنشودة وهي الرشد، والرشد لوحده أيضاً لا يكفي بل لا بد من تسهيل الحركة وتيسيرها بمساعدة الأعضاء حتى يتحقق المراد. فالهداية محض التعريف، والرشد هو التنبيه والإرشاد للهدف حتى يستيقظ الإنسان ويتحرك نحوه، والتسديد هو الإعانة والنصرة للأعضاء والجوارح حتى تتحرك نحو الهدف بيسر وسهولة.

٤ ـ التأييد:

التأييد كأنه الجامع لكل مراتب الهداية، وهو عبارة عن إفاضة القوة الباطنية والخارجية على الإنسان، الباطنية وهي قوة البصيرة، والظاهرية قوة البطش ومساعدة الأسباب وتسخيرها له.

وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[١].

والتأييد قريب من العصمة التي هي عبارة عن تجلٍ إلهي في باطن الإنسان يقوى به الإنسان على فعل الخير وتجنب الشرّ، فيغدو كراد باطني غير محسوس. وإليه الإشارة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٢].

■ موانع حصول الهداية:

إن أسباب الهدى كما ذكرنا هي العقل وهو الحجة الباطنة والأنبياء والرسل وهم الحجة الظاهرة، ولكن قد تنشأ في كثير من الأحيان موانع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

تصد عن الحق وسبل الهداية، وهي عديدة ومتنوعة منها

١ ـ حب الدنيا.

٢ ـ الحسد.

٣ ـ الكبر.

وغيرها من الأسباب التي تؤدي إلى غفلة القلوب واحتجابها، كالعادات والتقاليد أيضاً وإليها الإشارة في قوله تعالى:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وعن الكبر والحسد قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾[2].

وقوله عز وجل:

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾[3].

هذه الموانع وغيرها أيضاً منعت من حصول الهداية.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٣) سورة القمر، الآية: ٢٤.

الموانع التي تحول دون حصول الشكر

إنه لم يصرف الخلق عن شكر النعمة إلا أمران:

١ ـ الجهل.

٢ ـ والغفلة.

فشكر النعمة لا يتصور إلا بعد معرفتها، ومن عرف هذه النعمة ظنّ أن الشكر عليها يكون باللسان بقوله: الحمد لله أو الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي خلقت لأجلها؛ وهي طاعة الله تعالى. ومع حصول هاتين المعرفتين لا يوجد مانع يمنع من الشكر إلا:

١ ـ غلبة الشهوة.

٢ ـ واستيلاء الشيطان.

□ أسباب الغفلة عن النعم:

إن للغفلة عن النعمة أسباباً عديدة منها:

١ ـ عدم اعتبار النعم العامة نعماً:

إن الناس لا يعدون النعم العامة التي تشمل جميع الخلق نعماً، فلا يشكرون الله عليها، لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع

أحوالهم، فلا يرى كل واحد منهم لنفسه اختصاصاً بها فلا يعدونها نعمة ولا تراهم يشكرون الله؛ كنعمة الهواء والبصر و. . . مثلاً. نعم إذا سلب الإنسان هذه النعمة نتيجة حادث ما أدرك عندها أنها نعمة، ولكن هذا غاية الجهل لأن إدراكه للنعمة وشكره عليها صار موقوفاً على أن تسلب منه ثم ترد إليه ثانية.

٢ ـ عدم اعتبار النعم الخاصة نعماً:

ذكرنا أن أحد أسباب الغفلة عن الشكر هو عدم اعتبار النعم التي شملت جميع البشر نعماً تستحق الشكر، ويوجد أيضا سبب ثان وهو الجهل بوجود نعم خاصة أيضاً تستحق الشكر.

فما من عبد عادل يمعن النظر من حوله جيداً إلا وسيكتشف أن الله تعالى قد اختصه بنعم كثيرة لا يشاركه فيها كل الناس بل البعض منهم فقط وربما لا يشاركه فيها أحد. وذلك يعترف به كل إنسان في ثلاثة أمور:

١ ـ العقل.

٢ ـ الخُلق.

٣ ـ العلم.

ـ أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن عقله، ويظن نفسه أعقل الناس. فإن كان للإنسان مثل هذا الظن والاعتقاد فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة.

ـ أما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، وهو إنما يذمها لأنه يرى نفسه بريئاً عنها. وهذا الإنسان إذا حسن خلقه ورأى أن غيره مبتلًى بالخلق السيّىء وجب عليه أن يشكر الله على هذه النعمة.

ـ أما العلم: فما من أحد إلا وهو عارف ببواطن نفسه وخفايا أفكاره، بحيث إنه لو اطلع أحد عليها لافتضح أمره. فلكل إنسان علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر الإنسان ستر الله الجميل عليه، بحيث إنه أظهر الجميل وستر القبيح.

فهذه ثلاثة من النعم الخاصة التي يعترف بها كل إنسان. وهناك نعم أخرى أعم منها قليلاً: فما من عبد إلا وقد رزقه الله في شكله أو شخصه، أو أخلاقه وصفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزّه أو جاهه أو سائر محابّه أموراً لو سلبت عنه وأعطيت إلى غيره لما رضي بذلك.

كأن يكون مؤمناً لا كافراً، حياً لا ميتاً، إنساناً لا بهيمة، ذكراً لا أنثى، صحيحاً لا مريضاً، سليماً لا معيباً، فإن هذه كلها أمور ونعم خاصة وإن كان فيها عموم أيضاً. وهي نعم لو بدلت بأضدادها لم يرضَ الإنسان.

إذن لله تعالى على كل إنسان نعم قد اختصه بها، فكل من راقب حال نفسه وفتش عما خُصَّ به، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة لاسيما من خص بنعمة الإيمان والقرآن والعلم والسنّة ثم الصحة والأمن وغير ذلك. لذلك قال ﷺ:

«إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه».

وقال ﷺ أيضاً:

«من آتاه الله القرآن فظن أنّ أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله»[1].

وهذه النعم هي النعم واللذات الحقيقية والمطلوبة. أما لذات الدنيا فهي ناقصة، ومكدّرة. وهي نعم خلقت لكي تجلب العقول الناقصة

(١) أخرجه البخاري.

حتى إذا انخدع بها وتعلق بها أبت عليه واستعصت كالمرأة الجميلة تتزين للشاب حتى إذا تعلق قلبه بها استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دائم وتعب قائم، وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر إليها، ولو أنه عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة لسلم. وهكذا يكون وقوع أهل الدنيا في شباكها وحبائلها، فإن المعرض عن الدنيا إذا كان يتألم من خلال الصبر عنها، فإن المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها والسعي لحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها بل إن تألُّمه أشد من المعرض، وتألم المعرض عن الدنيا يفضي إلى لذة في الآخرة أما تألم المقبل عليها فيفضي إلى الألم في الآخرة. فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[1].

فإذن إنما انسدّ طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة، الخاصة والعامة.

■ علاج القلوب الغافلة عن الشكر:

يوجد طريقان للمعالجة:

الأول: مختص بالقلوب البصيرة:

وهي التي يكفيها مجرد التأمل في نعم الله العامة ويتدبر فيها.

الثاني: مختص بالقلوب البليدة:

وهي قلوب اشتدت غفلتها فلا ينفعها مجرد التأمل والتفكر بل تحتاج إلى إجراء آخر. وأصحاب هذه القلوب لا يعدون النعمة نعمة إلا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

إذا خصّتهم أو شعروا بالبلاء معها. لذا فسبيل العلاج أن ينظر صاحب هذا القلب إلى من دونه ليرى من خلالهم نعم الله عليه. كأن يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاءات التي نزلت على هؤلاء الناس ثم يتأمل في صحته وسلامته، فيدرك عندها نعمة الصحة فيشكر الله تعالى عليها.

وكأن يذهب إلى المقابر ويعتبر من أهلها الذين فاتتهم نعمة الحياة التي ما زال يتنعم بها فيشكر الله تعالى عليها.

اجتماع الصبر والشكر

إن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح. وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها:

الأول: إن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون هناك أكبر منها. إذ إن مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعّفها أو زادها، فماذا كان يردّه أو يحجزه عن ذلك. فيكون شكر العبد على أن الله لم يبتله بمصيبة أشد وأعظم.

الثاني: إن كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه. ولهذا استعاذ عيسى عليه السلام في دعائه حيث قال: «اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني».

إذاً ما من إنسان أصيب ببلاء ما فلو تأمل حق التأمل لرأى أنه كان يستحق أكثر مما أصيب به.

الثالث: إنه ما من عقوبة إلا وكان يمكن أن تؤخر إلى الآخرة، وعندها ستكون المصيبة أشد وأدهى. فمصائب الدنيا يمكن أن يتسلّى عنها بأسباب أخر تهوّن من وقع المصيبة وتخففها. أما مصائب الآخرة فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي بأمور أخرى لأن أسباب التسلي مقطوعة

بالكامل عن المعذبين في الآخرة. ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً، إذ قال الرسول الأكرم:

«إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذّبه ثانياً»[1].

الرابع: إن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، وكان لا بد من وصولها وقد وصلت ووقع الفراغ منها، واستراح من بعضها أو من جميعها، وهذه نعمة.

الخامس: إن الثواب على المصيبة أكبر من نفس المصيبة. وإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة.

فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم وغداً سيشكره العباد على هذه البلايا عندما يروا ثواب الله عليها كما يشكر الصبي بعد البلوغ والعقل أستاذه وأباه على تأديبه إذ عندها سيدرك ثمرة ما استفاده من التأديب. والبلاء تأديب من الله تعالى ومزيد عناية بخلقه، بل إن عنايته بهم أتم من عناية الآباء بأولادهم. وقد روي عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأله: أوصني. فقال ﷺ: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك»[2]. ونظر ﷺ إلى السماء فضحك فسئل فقال:

«عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً له، وإن قضى له بالضرّاء رضي وكان خيراً له»[3].

إن رأس الخطايا المهلكة هو حب الدنيا ورأس أسباب النجاة

---

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٢٦٠٤.

(٢) أخرجه أحمد، ج٥، ص٣١٩.

(٣) أخرجه البغوي، ج٢، ص١٧٩.

التجافي عن دار الغرور، أما مؤاتاة النعم على وفق المراد ومن غير امتزاج ببلاء ومصيبة فتورث طمأنينة القلب بالدنيا وأسبابها حتى تصبح هذه الدنيا جنة بالنسبة له، فيعظم عند ذلك بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته لها. وأما إذا كثرت عليه المصائب وأحاطت به فسينفر قلبه من الدنيا ولن يسكن إليها أو يأنس بها بعد ذلك. حتى تصير الدنيا سجناً بالنسبة له، فيعد نجاته من أسرها غاية السعادة والكمال. لذلك قال النبي ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1] والكافر هو كل من أعرض عن الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها، واطمأن إليها. والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي، وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي، أما المؤمن والموحد المطلق فلا يحب إلا الواحد الحق.

إذن ففي البلاء نعم من هذا الوجه، فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضروري أيضاً، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله مثال الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل. فالدنيا منزل وقد دخله الناس وهم خارجون منه إلى اللحد، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما ينفّر قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة.

وكل من أدرك هذه الحقيقة فسيشكر الله تعالى عند حلول البلاء، أما من لم يدرك نعمة البلاء ولم يعرف حقيقتها فلن يتصوّر منه الشكر، لأن الشكر يتحقق بعد معرفة النعمة. ومن لم يؤمن أن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لن يتصوّر منه الشكر على المصيبة.

قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعالى: إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١١٣.

بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»[1].

روي أن رجلا قال: يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال النبي ﷺ:

«لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه وإذا ابتلاه صبّره»[2].

وقال ﷺ:

«إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك»[3].

قال أحدهم أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة الشريفة فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا، فجلس محمراً لونه ثم قال:

«إن في من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه»[4].

وعن علي عليه السلام قال:

«أيّما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات فهو شهيد».

---

(١) الجامع الصغير باب القاف، ج٢، ص٨٣.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات.
(٣) أخرجه أبو داود، ج٢، ص١٦٢.
(٤) أخرجه أحمد والبخاري.

وقال عليه السلام:

«من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك».

وعن رسول الله ﷺ قال:

«إذا أراد الله بعبد خيراً وأراد أن يصافيه صبَّ عليه البلاء صباً وثجّه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف وإن دعاه ثانياً فقال: يا ربِّ؛ قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك أو رفعت عنك ما هو خير وادّخرت لك عندي ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صباً كما كان يصب عليهم البلاء صباً فيودّ أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾».

وعن ابن عباس قال:

«شكا نبي من الأنبياء إلى ربه فقال: يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك فتزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء. ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترىء على معاصيك فتزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا!

فأوحى الله تعالى إليه: إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبّح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب كأمثال الجبال

فأزوي عنه الدنيا وأعرضه للبلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته».

وعن النبي ﷺ قال:

«إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج، ثم قرأ قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾»[1].

وعن النبي ﷺ أنه قال:

«ما تجرّع عبد قطّ جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل عليها، ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهريقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة فريضة وخطوة إلى صلة الرحم»[2].

وروي أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأنَّ أنة فأوحى الله تعالى إليه: يا زكريا لئن صعدت منك أنّة ثانية لأمحونّك من ديوان النبوة، فعضّ زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين.

---

(١) أخرجه أحمد، ج٤، ص١٤٥.

(٢) مكارم الأخلاق.

وقال لقمان لابنه: يا بني إن الذهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء، وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط.

الخوف والرجاء

مقدمة

إن الخوف والرجاء جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء، إلا أزمّة الرجاء. ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب المقيم، مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف.

القسم الأول

الخوف

حقيقة الخوف ومنشؤه

الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع حدوث مكروه ما، وهو طبيعية للعلم والمقصود بالعلم؛ هو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف على نفسه القتل، ويكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، فالعلم بأسباب المكروه سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب.

وكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون بمعرفة الله ومعرفة صفاته، وأخرى يكون لكثرة جناية العبد بمقارفة المعاصي، وثالثة يكون بهما جميعاً. فبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى تكون قوة خوفه. فأخوف الناس من ربه أعرفهم بنفسه وربه. لذلك قال النبي ﷺ: «أنا أخوفكم لله»[1].

كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2] فالمعرفة إذا كملت أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب إلى البدن والجوارح والصفات.

ـ أما أثره في البدن؛ فالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت أو يصعد إلى الدماغ فيفسد

---

(١) أخرجه البخاري في حديث أنس.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

العقل، أو يقوى الخوف في نفسه حتى يورثه اليأس والقنوط.

- أما أثره في الجوارح؛ فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه.

- أما في الصفات؛ فهو أن يقمع الشهوات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سماً. فبالخوف تحترق الشهوات وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد. ويصير همّه دوام النظر إلى عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه. إذاً فقوة المراقبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

ويمتد تأثير الخوف إلى الأعمال بحيث يمتنع الإنسان الخائف عن الأمور المحظورة، ويسمى هذا الكف عن المحظورات ورعاً. فالخوف إذن يؤثر في الجوارح بالكف أو الإقدام.

أقسام الخوف

إن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه نوعان:

١ ـ مكروه في ذاته: كالنار.

٢ ـ مكروه لغيره: كالمعاصي التي يكرهها الإنسان لأنها تفضي إلى سوء العاقبة في الآخرة. ومقام الخائفين يختلف باختلاف المكروه الذي يغلب على قلوبهم، وهما إذاً قسمان:

١ ـ الخوف مما هو مكروه لغيره:

كالذي يغلب عليه الخوف من الموت قبل أن يوفّق للتوبة، أو الخوف من نقض التوبة أو نكث العهد، أو الخوف من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله، أو الخوف من زوال رقة القلب، أو الخوف من الميل عن الاستقامة، أو الخوف من اتباع الهوى والشهوات، أو الخوف من أن يكله الله إلى حسناته، أو الخوف من الاستدراج، أو الخوف من الافتضاح وغيرها الكثير من المكروهات التي يخاف منها لا لنفسها بل لأجل ما تفضي إليه من أمور مكروهة أعظم وأخطر.

وهذه كلها مخاوف العارفين، ولهذه المخاوف فائدة عظيمة وهي إنها طريق للحذر عما يفضي إلى المخاطر الأشد والأعظم، وسبيل للمسارعة في العلاج قبل فوات الأوان. فمن يخاف استيلاء العادة عليه يواظب على مجاهدة النفس لترك هذه العادات السيئة، والذي يخاف من

اطلاع الله تعالى على قبيح ما أسرّه يشتغل بتطهير قلبه من الوساوس والأهواء. وهكذا إلى بقية الأقسام من المخاوف.

وإن أشد المخاوف على المتقين الخوف من الخاتمة، فإن الأمر فيها خطير، وهي من أعلى درجات الخوف في هذا القسم، وأدلها على كمال المعرفة الخوف من السابقة أيضاً. لأن الخاتمة تتبع السابقة وهي متفرعة عنها. فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخوف من السابقة؛ كرجلين أصدر الملك بحقهما حكماً يحتمل أن يكون إما حكم بالإعدام أو التعيين في منصب وزاري، ولكن لم يصل التوقيع إليهما بعد، فينشغل قلب أحدهما ويكون جل اهتمامه منصبّاً على وصول الحكم وعلى ما في مضمونه، والآخر منشغل قلبه بنفس توقيع الملك وكيفيته، وأنه ما الذي خطر للملك حال توقيع الحكم وإصداره، وهذا الالتفات من قبل الأخير هو أعلى من التفات وانشغال الأول.

وكذلك يكون الالتفات إلى القضاء الأزلي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد.

وإليه أشار النبيﷺ حيث كان على المنبر فقبض على كفه اليمنى وقال:

«هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص، ثم قبض اليسرى وقال: هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأنسابهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص. وليعملنّ أهل السعادة بعمل أهل الشقاء حتى يقال: كأنهم منهم بل هم، ثم يستنقذهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة. وليعملنّ أهل الشقاء بعمل أهل السعادة حتى يقال: كأنهم منهم بل هم هم، ثم يستخرجهم الله تعالى قبل

الموت ولو بفواق ناقة، السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله والأعمال بالخواتيم»[1].

وهذا كانقسام الخائفين إلى:

١ ـ من يخاف معصيته وخيانته.

٢ ـ ومن يخاف الله تعالى نفسه، لجلاله وصفاته التي تقتضي الهيبة لا محالة، وهذه المرتبة أعلى من الأولى كما هو واضح. فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصدّيقين. وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى. فكل من عرف الله وعرف صفاته علم أنه هو وحده من يستحق أن يخاف منه.

٢ ـ الخوف مما هو مكروه بنفسه:

الفئة الثانية من الخائفين هم الذين يخافون ما هو مكروه بنفسه، كالخوف من سكرات الموت وأهواله وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو أهوال المطّلع أو هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، ومن الصراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها، أو الخوف من الاحتجاب عن الله تعالى. وهذه الأسباب كلها مكروهة في نفسها. وأحوال الخائفين فيها مختلفة، فأعلاها رتبة هو؛ خوف الفراق والاحتجاب عن الحق سبحانه، وهو خوف العارفين. ثم يليها خوف العابدين والصالحين والزاهدين و. . .

ومن لم تكتمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لن يشعر بلذة الوصال مع الحق ولا بألم البعد عنه والفراق. حتى إذا ذكر له أنّ العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الاحتجاب والبعد؛ وجد ذلك منكراً في باطنه وتعجب

---

(١) أخرجه الترمذي: ج٨، ص٣٠٨.

في نفسه لأنه لا يعرف إلا لذة الفرج والبطن والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبمعنى آخر كل لذة يشترك فيها مع البهائم.

أما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام على من ليس أهلاً له، ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره. فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين.

فضيلة الخوف والترغيب فيه

إن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وأخرى بالآيات والروايات.

١ ـ التأمل والاعتبار:

إن فضيلة الشيء تعرف بقدر إعانتها في الوصول إلى سعادة لقاء الله. إذ لا مقصود للإنسان سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء الله والقرب من مولاه، فكل ما يعين على هذا الهدف السامي اعتبر فضيلة.

ومن جهة أخرى لا يصل الإنسان إلى سعادة لقاء الله إلا بتحصيل محبته والأنس به في هذه الدنيا، وهذه المحبة بدورها لا تحصل إلا بالمعرفة وهذه المعرفة أيضاً لا تتم إلا بدوام التفكر والتذكر، ولا تتيسر المواظبة على التذكر والتفكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا يتحقق ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف. فالخوف هو النار المحرقة للشهوات وفضيلة هذا الخوف تكون بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف ويمنع عن المعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ذكره.

وكيف لا يكون الخوف فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي بها يتقرب إلى الله زلفى.

٢ ـ الآيات والأخبار:

إن ما ورد في فضيلة الخوف من طريق الآيات والروايات خارج عن الحصر، ويكفيك دلالة على فضيلته؛ أن الله تعالى جمع للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهي من مقامات أهل الجنان، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[١].

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٢].

وقال أيضاً:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[٣].

وكل ما دلّ على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم. لذلك جاء في الخبر عن النبي موسى عليه السلام أنه قال:

«أما الخائفون فإنهم لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء، والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء، لأنهم ورثة الأنبياء».

ولقد أمر الله تعالى بالخوف منه، بل وأوجبه وقرنه بالإيمان حيث قال:

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة البينة، الآية: ٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

لذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن من الخوف وإن ضعف، فيكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه.

ومن الأخبار ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال:

«قال الله تعالى: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين؛ فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة»[١].

وقال ﷺ أيضاً: «من خاف الله تعالى خافه كل شيء»[٢].

وقالت عائشة: قلت: يا رسول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[٣] هو الرجل يسرق ويزني؟

قال ﷺ: «لا بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»[٤].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«يا إسحاق خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك»[٥].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٢، ص٣٩٣.
(٥) الكافي: ج١، ص٦٨، رقم ٢.

أخافه الله من كل شيء»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«من عرف الله خاف الله ومن خاف الله ساخت نفسه عن الدنيا»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب»[3].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«المؤمن بين المخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف»[4].

وعنه عليه السلام:

«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[5].

---

(١) الكافي: ج١، ص٦٨.
(٢) المصدر السابق: رقم ٤.
(٣) الكافي ج٢، ص٦٩، رقم ٧.
(٤) المصدر السابق: ص٧١، رقم ١٢.
(٥) المصدر السابق: رقم ١١.

كيفية الوصول إلى مقام الخوف

إن ما ذكرناه في دواء الصبر وكيفية التحقق به والذي شرحناه في فصل الصبر والشكر كاف في هذا الغرض، لأن الصبر لا يمكن التحقق به إلا بعد الخوف والرجاء. لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله وباليوم الآخر والجنة والنار. وهذا اليقين يؤدي إلى الخوف من النار والرجاء بالجنة، والخوف والرجاء يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بالخوف.

ولذلك قال علي أمير المؤمنين عليه السلام:

«من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات»[1].

ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله والتفكر فيه على الدوام، ومن ثم يؤدي دوام الذكر إلى الأنس، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات الأخرى. فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا

---

(١) نهج البلاغة: باب الحكم.

بعدهما مقام سوى الصبر وبه تتحقق المجاهدة والتجرد لله باطناً وظاهراً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل.

فإذن مما ذكرناه في كيفية علاج الصبر وتحصيله كفاية ولكن نفرد الخوف بكلام إجمالي؛ وهو أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

١ ـ الخوف من عذاب الله:

وهو خوف عموم الخلق، وهذا الخوف يحصل بمجرد الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية. وأما ضعف هذا الخوف عند بعض الناس فسببه الغفلة وضعف الإيمان. والغفلة تزول بالوعظ والتذكير وملازمة التفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، ومما يورث الخوف والقضاء على الغفلة النظر إلى الخائفين ومعاشرتهم ومشاهدة أحوالهم. كما إن للتأمل في سيرة النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام تأثيراً كبيراً أيضاً، فالنبي الأكرم ﷺ وهو سيد الأولين والآخرين كان أشد الناس خوفاً، حتى روي أن رجلاً استشهد فقالت أمه: هنيئاً لك الجنة، هاجرت إلى رسول الله وقتلت في سبيل الله، فقال ﷺ:

«وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضرّه»(١).

وكيف لا يخاف المؤمنون ونبيهم ﷺ يقول:

«شيبتني سورة هود وأخواتها سورة الواقعة، وإذا الشمس كوّرت وعمّ يتساءلون»(٢).

---

(١) تقدم في البيهقي في الشعب.
(٢) أخرجه الترمذي.

والقرآن الكريم من أوّله إلى آخره مليء بالتخويف لمن قرأه وتدبر فيه. كقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾[1].

وقوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[2].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾[3].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[4].

وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[5].

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[6].

وقوله تعالى في آية العصر:

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[7].

فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران.

وإنما خوف الأنبياء كان مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[8].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٣١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٤) سورة هود، الآية: ١٠٢.
(٥) سورة مريم، الآية: ٧١.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٧) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

حتى روي أن النبي ﷺ وجبرائيل عليه السلام بكيا من شدة الخوف من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لا تبكيان وقد أمنتكما، فقالا: «ومن يأمن مكرك»[1] كما أن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله، وهذا ادعاء عظيم امتحن به عليه السلام حيث جاءه جبرائيل وهو في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ قال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا. فكان ذلك وفاء بمقتضى قوله عليه السلام: حسبي الله. وبمثل هذا امتحن موسى عليه السلام أيضاً حيث قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ فقال الله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾. ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد الله عليه الأمن فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. إنه ليس لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله، وكل من أدرك قصور معرفته عن الإحاطة بكنه معرفة الله عظم لا محالة خوفه. ولذلك لما قيل لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2].

قال عيسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ وقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[3] فقد فوّض عيسى عليه السلام الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية لعلمه بأنه ليس إليه من الأمر شيء؛ وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدّ المعقولات والمألوفات، فلا يمكن الحكم عليها بقياس وحدس وحسبان فضلاً عن التحقيق، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين.

وإن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد من نيران الخوف اشتعالاً،

---

(١) أخرجه ابن شاهين.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

وكيف يأمن الإنسان من تغيّر الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأنه أشد تقلباً من القدر في غليانها وقد قال الله تعالى مقلب القلوب:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾[1].

وإن أجهل الناس من أمن من مكر الله وهو يناديه ويحذره من الأمن. ولولا أن الله تعالى لطف بعباده العارفين إذ روّح قلوبهم بروح الرجاء إذاً لاحترقت قلوبهم من نار الخوف.

فالرجاء رحمة من الله لخواص أوليائه والغفلة رحمته على عوام خلقه إذ لو انكشف لهم الغطاء لزهقت نفوسهم وتقطعت قلوبهم لقلة استعدادهم. روي في الأخبار أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف، فأوحى الله عز وجل إليه: عبدي أما رضيت إن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى رضيت يا رب، فاعصمني من الكفر.

٢ ـ الخوف من الله تعالى نفسه:

وهو خوف العلماء وأرباب القلوب، العارفين بالله تعالى وصفاته التي تقتضي الهيبة والخوف. وهو عز وجل القائل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2].

وقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[3].

وهذه المرتبة من الخوف هي أعلى من المرتبة الأولى، لأن الله

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

تعالى نفسه هو المخوف، أي الخوف من البعد والاحتجاب عنه.

ومن وصل إلى هذه المرتبة من الخوف، بحيث إن معرفته بالله تعالى دفعته للخوف منه فلا يحتاج في هذه الحالة إلى علاج يستجلب به الخوف.

خوف العرفاء من سوء الخاتمة

إن العارف لا يزال بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما، ولذلك قال النبي ﷺ:

«العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه. فوالذي نفسي بيده؛ ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار»[(١)].

وسوء الخاتمة على مرتبتين إحداهما أعظم من الأخرى.

المرتبة الأولى: وهي العظيمة التي يخاف أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود، وأن تقبض الروح على حالة الجحود هذه أو الشك. فيكون ما غلب على القلب من الجحود حجاباً دائماً بينه وبين الله، وهذا يعني البعد الدائم والعذاب المخلّد.

المرتبة الثانية: وهي دون المرتبة الأولى؛ وهي التي يخاف أن يغلب على القلب عند لحظات الموت أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها حيث يتمثل له ويأخذ بقلبه فينشغل به ولا يبقى لغيره متسع حتى

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب.

تقبض روحه وهو على تلك الحالة من انشغال القلب واستغراقه بملذات الدنيا وشهواتها.

إن الوجه إذا انصرف عن الله تعالى حصل الحجاب، وإذا وجد الحجاب نزل العذاب، إذ أن نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين. أما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا، المصروف همّه إلى الله تعالى، فتقول له النار: جُز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي.

إذاً فإن اتفق أن قبضت الروح على حالة حب الدنيا فالأمر في غاية الخطورة، لأن ما يجري على الإنسان بعد الموت هو حصيلة ما جناه وحصّله في عالم الدنيا.

وبعد الموت لا يمكن اكتساب صفات جديدة للقلب لكي تبطل الصفات الغالبة عليه والتي حصّلها قبل الموت، لأنها لا تصرف في القلوب إلا بواسطة أعمال الجوارح وقد بطلت هذه الجوارح بالموت فبطلت الأعمال. إذاً فلا مطمع في عمل جديد ولا مطمع في الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فات وإصلاح ما يمكن إصلاحه، عند ذلك ستكون الحسرة عظيمة.

أما إذا رسخ الإيمان بالله تعالى وقوي حبه في القلب، وبانت الأعمال الصالحة فإنها ستمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت.

■ الأسباب التي تؤدي إلى سوء الخاتمة:

إن الأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن إحصاؤها بالتفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها:

أ ـ في الختم على الشك والجحود:

وينحصر سببه في أمرين:

١ ـ الاعتقاد الفاسد:

وهو أن يكون اعتقاد الإنسان في ذات الله وصفاته وأفعاله على خلاف الحق وما هو صحيح. وهذا الاعتقاد الخاطىء إما أن يصل إليه اعتماداً على رأيه ونظره وعقله. وإما أن يأخذه بالتقليد.

وصاحب هذا الاعتقاد الفاسد إذا اقترب منه الموت وظهرت له ناصية ملك الموت، انكشف له ساعتئذٍ بطلان ما كان يعتقده، وهو كان من قبل قاطعاً به ومتيقناً منه، فلم يظن في نفسه أنه مخطئ في اعتقاده لالتجائه إلى رأيه الغائل وعقله الناقص. فإن اتفق زهوق روحه وهو على هذه الحال وقبل أن ينيب ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه وهو على الشرك. وهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾[2].

فكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل، وذلك بسبب خفة اشتغال القلب بالدنيا، فكذلك ينكشف عند سكرات الموت بعض الأمور حيث تكون شواغل الدنيا وشهوات البدن مانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ وتنكشف له الأمور على ما هي عليه ويكون هذا الكشف أيضاً سبباً للشك في بقية اعتقاداته. إذاً فكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً هو خلاف

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.

الحق، إما تقليداً أو بالاعتماد على رأيه وعقله فهو في خطر، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق.

٢ ـ ضعف الإيمان:

وهو السبب الثاني الذي يؤدي إلى الختم على الشك والجحود. وهو ينشأ من استيلاء حب الدنيا على القلب. وكلما ضعف الإيمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا إلى الحد الذي لا يبقى للقلب موضع لحب الله تعالى. فيورث ذلك انهماكاً في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو وتتراكم عليه ظلمة الذنوب حتى ينطفىء نور الإيمان على ضعفه، حتى إذا جاءت سكرات الموت ازداد حب الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب بسبب فراق الدنيا ويلقي باللائمة على الله ويرى ما يحدث عليه أنه منه عز وجل.

فيعترض على ما قدّره الله تعالى من حتمية الموت ويكره ما أراده الله، وفي هذه الحالة يخشى أن يشتعل في باطنه بغض الحق تعالى بدل حبّه. فإذا اتفق أن زهقت الروح في تلك الحالة التي خطرت فيها هذه الخواطر الفاسدة فقد ختم لصاحبها بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً.

والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها، هذا الحب الذي يؤدي إلى ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله أيضاً. فحب الدنيا رأس كل خطيئة وهي الداء العضال وقد عم هذا الداء أصناف الخلق لقلة معرفتهم بالله تعالى، إذ لا يحبه إلا من عرفه. ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[1].

ب ـ في الختم على أمر من أمور الدنيا:

وهذه الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها سببان:

١ ـ كثرة المعاصي.

٢ ـ ضعف الإيمان.

إن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلفة والعادة. وكل ما ألفه الإنسان واعتاد عليه في عمره سيعود مرة ثانية ذكره وحضوره إلى القلب عند موته. فإن كان ميله أكثر إلى الطاعات، كان أكثر ما يحضره طاعة الله، وإن كان ميله أكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت.

فربما تقبض روح هذا العاصي عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا أو معصية من المعاصي التي بها يتقيد قلبه فيصير محجوباً عن الله تعالى. أما الذي لا يقارف الذنوب ولا يتبع الشهوات فهو بعيد عن هذا الخطر.

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال إلى المعاصي والشهوات، فلا طريق له إلا مجاهدة النفس لفطامها عن المعاصي واتباع الشهوات. وهذا هو القدر الذي يدخل تحت اختيار الإنسان، ويكون طوال المواظبة على الخير وتخلية النفس عن الشر عدّة وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة ويقول: خمسة، ستة، أربعة.. فقد كان مشغول النفس بالحساب الذي طال فيه شغله وإلفه له قبل الموت. إذاً فسوء الخاتمة مردّه إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر، ومقلب القلوب هو الله تعالى، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً، وإن كان لطول الإلفة فيه تأثير. لهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة. فإن لم تتمكن من صرف العمر في طاعة الله والبعد عن معصيته، بل كنت تعلم أن ذلك محالٌ أو عسير عليك، فلا بد وأن يغلب عليك ما غلب على العارفين من الخوف حتى طال بكاؤهم وحزنهم وقلقهم. وأعمال المرء كلها ضائعة كما عرفت إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن خروج الإنسان بسلام من هذه الفتنة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكل وصعب جداً. ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة في سبيل الله مغبوطاً عليها وكان موت الفجأة مكروهاً. أما موت فجأةً فلأنه ربما يتفق غلبة خاطر السوء على القلب عند حلول لحظة الفراق.

وأما الشهادة؛ فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله، بحيث إنه خرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات من القلب. إذْ لا يندفع المجاهد إلى القتال إلا وهو موطناً نفسه على الموت حباً لله وطلباً لمرضاته، ومبايعاً دنياه بآخرته، وهو راضٍ بهذا البيع الذي بايعه لله تعالى: إذ قال عز من قائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[1].

أما من ادعى الجهاد ونزل إلى ساحة القتال وهو لا يقصد لقاء الله والشهادة في سبيله بل كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت و..،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

فإنه وإن قتل في المعركة ولكنه بعيد كل البعد عن مرتبة الشهداء والصديقين.

■ كيفية تجنب سوء الخاتمة:

إذا بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخوف فيها؛ فاشتغل بالاستعداد لها وواظب على ذكر الله وأخرج حب الدنيا من قلبك، وجنب عن فعل المعاصي الجوارح وعن الفكر بها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك.

وإياك أن تسوّف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت لحظة الخاتمة، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك يمكن أن تختطف فيه روحك.

فراقب قلبك دائماً وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة تكون خاتمتك. هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا غلبك النوم فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن لا يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك.

وراقب نفسك ولحظاتك وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين أبداً. وإن فعلت ذلك كنت في خطر عظيم. والناس هلكى كلهم إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. واعلم أن ذلك كله لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر كفايتك وما هو ضروري لك في المطعم والملبس والمسكن وترك كل ما هو فاضل وزائد.

واعلم أن متّسع التدبير والتزود في هذه الحياة قصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك، فلم تفارقك بعدها الحسرة والندامة أبداً.

فإن كنت غير قادر على اتباع هذه النصائح لضعف خوفك، إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك، فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن تزيل به بعض القساوة من قلبك.

فإن عقل الأنبياء والعلماء والأولياء ومكانهم عند الله لم يكن دون عقلك ومكانتك فتأمل في أحوالهم حيث اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشياً عليه وبعضهم يخرّ ميتاً إلى الأرض. ولا غرو أن كان ذلك لا يؤثر في قلبك، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

من أحوال الأنبياء والأولياء في الخوف:

ما عن النبي ﷺ أنه سأل جبرائيل:

«مالي لا أرى ميكائيل يضحك، فقال جبرائيل عليه السلام: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف وعظم فبكى وأبكاهم من خوف الله ثم قال:

أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله ﷺ وإنهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً بين أعينهم كركب المعزى يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين أقدامهم وجباههم يناجون ربهم ويسألونه فكاك رقابهم من النار، والله

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ج٣، ص٢٢٤.

لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون»[1].

وفي رواية أخرى:

«كان زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر، كأنما القوم ماتوا غافلين. ثم قال: فما رئي ضاحكاً حتى قبض عليه السلام»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كان علي بن الحسين عليهما السلام إذا قام في الصلاة تغيّر لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«كان أبي يقول: كان علي بن الحسين إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلا ما حرَّك الريح منه»[4].

وكان علي بن الحسين عليهما السلام إذا توضأ اصفرّ لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول عليه السلام: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم».

فهذه بعض مخاوف الأولياء ونحن أجدر بالخوف منهم، نحن الذين قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا، فنسأل الله

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ص٢٣٦.

(٣) الكافي: ج٣، ص٣٠٠، رقم ٥.

(٤) الكافي: ج٣ ص٣٠٠، رقم ٤.

تعالى أن يتدارك بفضله أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا.

ومن العجائب أنّا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتّجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا. ونجتهد في طلب أقواتنا ولا نثق بضمان الله لنا. فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله تعالى علينا بتوبة نصوح يتوب بها علينا.

القسم الثاني

الرجاء

حقيقة الرجاء

إن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين. وهو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره بعد تهيئة جميع الأسباب والتمهيد لها، فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء. وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني عليها أصدق، لأنه انتظار من غير سبب.

وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردَّد فيه، أما ما يقطع به فلا. إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به. نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

إن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات كالأدوات التي تستعمل لتقليب الأرض وتطهيرها وسياقة الماء إليها. والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلوب وسوء أخلاقها.

وعليه ينبغي أن يقاس رجاء العبد للمغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ثم أمده بالماء في أوقاته، ونقّى الأرض من الشوك والحشيش وكل ما يمنع من نبات البذر أو فساده، ثم جلس بعدها منتظراً فضل الله في دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته؛ سمي هذا رجاء.

وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة بحيث لا يصل إليها الماء، ولم يشتغل ببذر الأرض أصلاً، ثم جلس ينتظر الحصاد؛ سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء.

وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار؛ سمي انتظاره تمنياً.

إذن فاسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت وتهيأت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار الإنسان، ولم يبقَ إلا ما ليس بداخلٍ تحت اختياره وهو فضل الله تعالى.

فالإنسان إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات وطهّر قلبه من شوك الأخلاق الفاسدة ثم انتظر فضل الله لكي يثبته على ذلك إلى حين لحظة الموت وفراق الدنيا، ويرزقه حسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة؛ كان انتظاره رجاءً حقيقياً، باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى الإيمان.

وإذا قطع عن بذر الإيمان ماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة كان انتظاره حمقاً وغروراً.

قال رسول الله ﷺ:

«الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الجنة».

وقال تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾[1].

وقال عزّ من قائل أيضاً:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾[2].

وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال:

﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا﴾[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قيل له:

«إن قوماً من مواليك يلمّون بالمعاصي ويقولون نرجو. فقال عليه السلام: كذبوا، ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني. من رجا شيئاً عمل له ومن خاف شيئاً هرب منه»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«لا يكون مؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[5].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦.
(٤) الكافي: ج٢، ص٦٨، رقم ٦.
(٥) المصدر السابق: ج٢، ص٧١، رقم ١١.

إذن فالعبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق عليه بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإن تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. ومن يشتهي التوبة ويشتاق إليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة، لأن كراهته للمعصية وحرصه على الطاعة يكون سبباً يفضي إلى التوبة. والرجاء إنما يتحقق بعد تهيؤ الأسباب. لذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾[1].

أما من ينهمك فيما يكرهه الله ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه للمغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقيٍ ولا تنقية.

فإذا عرفت حقيقة الرجاء؛ علمت أنها حالة أثمرتها المعرفة والعلم بتحقق أكثر الأسباب الداخلة في اختيار الإنسان، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام بتحقيق جميع الأسباب حسب القدرة والإمكان.

والرجاء يضاده اليأس، لأن اليأس يمنع عن العمل وتهيئة الأسباب. فالرجاء محمود لأنه باعث نحو الحركة والعمل، واليأس مذموم لأنه صارف عن العمل. أما الخوف فليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه. إذن فالرجاء يورث المجاهدة والمواظبة على الطاعات كيف ما تقلبت الظروف والأحوال. ومن آثاره الطيبة التلذذ بدوام الإقبال على الله والتنعم بمناجاته. فإن هذه الأحوال لا بد وأن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى.

وإن لم تظهر هذه الحالات فهذا يعني الحرمان من مقام الرجاء والنزول في حضيض التمني والغرور.

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

إن مقام الرجاء أعلى من الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم إليه، والحب يغلب الرجاء.

لذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما وقت الموت حيث قال عز من قائل: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[1] فحرم أصل اليأس. وفي أخبار يعقوب عليه السلام إن الله أوصى إليه: أتدري لم فرّقت بينك وبين يوسف؟ لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾. لم خفت الذئب ولم ترجني، ولم نظرت إلى غفلة أخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟!

وقال رسول الله ﷺ: «لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[2].

وقال علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه:

«يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك»[3].

وقال الله تعالى في كتابه الكريم:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) عيون أخبار الرضا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾[1].

قال رسول الله ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم. فهبط جبرائيل عليه السلام فقال: إن ربك عز وجل يقول: لم تقنط عبادي؟ فخرج فرحاً فبشرهم»[2].

وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال له:

«أحبّني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي. فقال: يا رب كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني، وذكّرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل».

وعن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: «لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم - أعمارهم - في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ومنّي يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت»[3].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه الحاكم: ج٤، ص٥٧٩.

(٣) الكافي: ج٢، ص٧١، رقم ١.

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: وجدنا في كتاب علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال وهو على منبره:

«والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذِّب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره في رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنّه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه»[1].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال:

«أحسن الظن بالله فإن الله تعالى يقول:

أنا عند ظن عبدي المؤمن بي إن خيراً فخير وإن شراً فشرٌّ»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك»[3].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧١.

(٢) المصدر السابق: ص٧٢، رقم ٣.

(٣) المصدر السابق: رقم ٤.

كيفية الوصول إلى مقام الرجاء

إن من يحتاج إلى الرجاء رجلين:

ـ إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة.

ـ وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضرّ بنفسه وأهله.

فهذان رجلان مائلان عن الاعتدال آخذين بطرفي الإفراط والتفريط، لذا فهما يحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال؛ وهو في مقامنا الرجاء.

والطبيب المعالج ينبغي أن يكون متلطفاً وناظراً إلى مواقع العلل، معالجاً لكل علّة بما يضادها لا بما يزيد منها. فالمطلوب هو العدل، وخير الأمور أوسطها، فإذا جاوز الوسط إلى حد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عنه.

لذا قال علي مولى الموحدين وأمير المؤمنين عليه السلام:

«إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من مكر الله»[1].

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٦، رقم ٣.

وأما كيفية حصول الرجاء فإنه يتحقق من خلال أمرين:

الأول: التفكر والاعتبار:

الاعتبار هو بتأمل الإنسان في نعم الله تعالى، حتى إذا أدرك لطائف نعم الله لعباده وعجائب صنعه وعطائه وما أعده للإنسان في هذه الدنيا من كل ما هو ضروري له وما هو محتاج إليه في وجوده واستمراره، علم عندها أن الله تعالى قد هيّأ للخلق كل أسباب السعادة في هذه الدنيا، إلى الحد الذي يكره بعده الانتقال من هذه الدنيا بالموت لكثرة النعم وغلبتها. حتى يغدو من يتمنى الموت من الفرد النادر ولا يتمناه أيضاً إلا في حالة نادرة وحادثة غريبة.

ومن الاعتبار والتفكر أيضاً النظر إلى حكمة الشريعة وسننها في تأمين مصالح الدنيا، ووجه الرحمة فيها للخلق.

الثاني: استقراء الآيات والأخبار:

فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر.

■ **أما في الآيات الكريمة:**

فقد قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾(١).

وقوله:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾(٢).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥.

وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوّف بها أولياءه فقال:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾[1].

وقال في هذا الشأن أيضاً:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[2].

وقال الله عز وجل في المغفرة والصفح:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[3].

■ أما في الأخبار:

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة وعجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل: هذا فداؤك من النار»[4].

وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام:

«إن النصاب يجعلون فداء لشيعتهم بظلمهم إياهم ووقيعتهم فيهم»[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٦.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٦.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٥) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٤٦.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«وسيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصاب، فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنة وأولئك النصاب إلى النار وذلك ما قال الله تعالى:

﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ في الدنيا، منقادين للإمامة ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم».

أوحى الله إلى نبيه ﷺ يقول له:

«إني أجعل حساب أمتك إليك فقال: لا يا رب أنت أرحم بهم مني. فقال: إذن لا أخزيك فيهم»[1].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه، فقال أعرابي: وإن تاب عنه؟ قال ﷺ: محي عنه، فقال الأعرابي: فإن عاد؟ قال ﷺ: يكتب عليه. فقال الأعرابي: فإن تاب؟ قال ﷺ: محي من صحيفته، قال إلى متى؟ قال ﷺ: إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل. إن الله لا يمل من المغفرة حتى يملّ العبد من الاستغفار. فإذا همَّ العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله عز وجل إلى سبعمائة ضعف، وإذا همَّ بخطيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل»[2].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير.

وجاء رجل إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليها. وليس لله في مالي صدقة ولا حجّ ولا تطوع أين أنا إذا متّ فتبسم رسول اللهﷺ وقال:

نعم معي إن حفظت قلبك من اثنتين الغلّ والحسد، ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب، وعينك من اثنتين النظر إلى ما حرّم الله عز وجل، وأن تزدري بهما مسلماً دخلت معي الجنة على راحتي هاتين.

وفي الحديث أن أعرابياً قال:

«يا رسول الله من يلي حساب الخلق؟ فقالﷺ: الله تبارك وتعالى. قال الأعرابي: هو نفسه؟ قالﷺ: نعم. فتبسم الأعرابي، فقال رسول اللهﷺ: مم ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح. فقال النبيﷺ صدق الأعرابي، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى، وهو أكرم الأكرمين. ثم قالﷺ: فقه الأعرابي».

وفي الخبر المشهور:

«إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق؛ إن رحمتي تغلب غضبي»[1].

وفي خبر آخز:

«لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد»[2].

فانظر كيف يسوق الله تعالى الخلق بسياط الخوف من جهة ويقودهم بأزمة الرجاء من جهة أخرى. فساق الخلق أولاً بسياط الخوف

---

(١) أخرجه مسلم: ج٨، ص٩٥.
(٢) أخرجه مسلم: ج٨، ص٩٧.

فلما خرجوا عن حد الاعتدال إلى اليأس، داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال. والقصد الأخير ليس مناقضاً للأول. لأنه لما رأى الخوف سبباً للشفاء اقتصر عليه وعندما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء لخروجهم عن الاعتدال فقد ذكره لهم. وعلى هذا ينبغي للوعاظ أن يقتدوا بسيد الواعظين، فيحسنوا استعمال الخوف والرجاء بحسب الحاجة. وإن لم يراع ذلك كان ما يفسده الواعظ بوعظه أكثر مما يصلحه.

ومن الأخبار أيضاً قول النبي ﷺ:

«والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها»[١].

وفي الخبر أيضاً:

«ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد حتى أن إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه»[٢].

وفي خبر آخر:

«إن لله مائة رحمة ادّخر عنده منها تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة، فبها يتراحم الخلق فتحنُّ الوالدة إلى ولدها، وتعطف البهيمة على ولدها، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السماوات والأرضين: فلا يهلك على الله تعالى يومئذ إلا هالك»[٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.

(٣) أخرجه مسلم: ج٨، ص٩٦.

وفي الخبر أيضا عن النبي ﷺ قال:

«ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته».

وعن رسول الله ﷺ أنه قال:

«بعثت بالحنفية السمحة السهلة»[1].

وقال ﷺ أيضاً:

«أحب أن يعلم أهل الكتابين أنّ في ديننا سماحة»[2].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنيّ عقوبته على عبده في الآخرة».

وعن رسول الله ﷺ قال:

«سلوا الله الدرجات العُلى فإنما تسألون كريماً».

وقيل: إن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فقال له إبراهيم عليه السلام: إن أسلمت أضفتك؛ فمرّ المجوسي. فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم: يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن منذ سبعين سنة نطعمه فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك. فمرّ إبراهيم عليه السلام يسعى خلف المجوسي فردّه وأضافه فقال المجوسي: ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له، فقال المجوسي: أهكذا يعاملني، ثم قال: اعرض عليّ الإسلام فأسلم.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة: ج٥، ص٢٦٦.

(٢) أخرجه أحمد.

فهذه نبذة من الأسباب التي يمكن أن يجلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، أما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا بالتخويف.

المؤمن من اجتمع الخوف والرجاء في قلبه

إن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت، وربما ينظر الناظر فيعتريه شك في أنه أيهما أفضل: الخوف أم الرجاء؟

والسؤال في الحقيقة فاسد، لأنه يشبه القول القائل؛ بأن الخبر أفضل من الماء. لأن الصحيح أن كلاً منهما أفضل في مكانه، فالخبر أفضل للجائر والماء أفضل للعطشان. وإن اجتمعا ينظر إلى الحالة الغالبة، فإن كان الجوع هو الغالب فالخبز أفضل، وإن كان العطش هو الغالب كان الماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان في الأفضلية.

فالخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، وفضلهما بحسب الداء الموجود. فإن كان الغالب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وإن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل.

ويجوز أن يقال بشكل عام الخوف بالنسبة إلى الناس أفضل، لأن المعاصي على الخلق أغلب، فيكون أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي.

وأما الأتقياء الذين تركوا ظاهر الإثم وباطنه، خفيّة وجليّة، فالأصلح لهم أن يعتدل خوفهم ورجاؤهم. لذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

وروي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال لبعض ولده:

«يا بني خف الله خوفاً ترى أنك إن أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبّلها منك، وارج الله رجاءً ترى كأنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال عليه السلام:

«كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لعذبك، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك، ثم قال عليه السلام: كان أبي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران، نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[1].

وفي مصباح الشريعة[2] عنه عليه السلام قال:

الخوف رقيب القلب والرجاء شفيع النفس، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً، وإليه راجياً. وهما جناحا الإيمان يطير بهما العبد المحقّق إلى رضوان الله، وعينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده. والخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده، والرجاء داعي فضل الله وهو يحيي القلب، والخوف يميت النفس.

قال النبي صلى الله عليه وآله: المؤمن بين خوفين: خوف ما مضى، وخوف ما بقي.

وبموت النفس يكون حياة القلب، وبحياة القلب يكون البلوغ إلى

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٧، رقم ١.

(٢) مصباح الشريعة، الباب ٨٨.

الاستقامة، ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضلّ، ويصل إلى مأموله، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما يختم صحيفته ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً، ولا قدرة له على شيء؟ وكيف لا يرجو وهو يعرف أنه عاجز وأنه غارق في بحر آلاء الله ونعمائه التي لا تعد ولا تحصى. فالمحب يعبد ربه على الرجاء، والزاهد يعبده على الخوف.

فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه.

الفقر والزهد

مقدمة

إن الدنيا عدوة لله تعالى، بغرورها ضلّ من ضلّ، وبمكرها زلّ من زلّ، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأسُّ الحسنات.

ونحن نذكر في هذا القسم من الكتاب [الفقر والزهد] فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات. فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد عنها. ولكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً. ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة، ونحن نذكر هنا حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما، ونذكر الفقر في شطر والزهد في شطر آخر.

القسم الأول

الفقر

حقيقة الفقر وحالاته

الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً. ولا شك في أن كل موجود سوى الله هو فقير لأنه محتاج إلى الوجود ولا مانح للوجود سوى الله الغني المطلق. فكل ما عدا الله محتاجون إليه ليمدهم بالوجود وإلى هذا الحصر أشار عز وجل في كتابه حيث قال:

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[1].

وهذا هو معنى الفقر المطلق ولكننا لسنا بصدد بيان الفقر المطلق الآن بل كلامنا عن الفقر من المال على الخصوص، وإلا فإن فقد الإنسان بالنسبة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها. ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال. فكل فاقد للمال نسميه فقيراً بشرط أن يكون محتاجاً إليه. ويتصوّر للفقير ستة أحوال عند الفقر، ونحن نميّزها ونخصص كل حال باسم:

■ الحالة الأولى: الزهد

وهي مرتبة عالية يستنكف فيها الإنسان عن المال، بحيث إنه لو وصل إليه لكرهه، وتأذّى منه، وهرب من أخذه، محترزاً من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى الزاهد.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٨.

■ الحالة الثانية: الرضا

وهي أن لا يرغب الإنسان في أمرٍ يفرح بحصوله، ولا يكره مكروهاً يتأذى به. بل يكون في كل الحالات راضياً بما جرى عليه، لذا يسمى صاحب هذه الحالة بالراضي.

■ الحالة الثالثة: القناعة

وهي أن يكون وجود المال أحب إلى الإنسان من عدمه، ولكن لم تبلغ رغبته الحد الذي يحمله على طلبه، بل إن وصل إليه أخذه وفرح به، وإن افتقر إليه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً. إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة.

■ الحالة الرابعة: الحرص

أن يكون تركه للطلب سببه العجز وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب والمشقة لطلبه. وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

■ الحالة الخامسة: الاضطرار

أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً كيف ما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أم قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة.

■ الحالة السادسة: الاستغناء

ويوجد وراء هذه الأحوال حالة هي أعلى من الزهد، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده. فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذَّ وإن فقده فكذلك. وصاحب هذه الحالة لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزانته لم تضره، إذ يرى الأموال في خزانة الله لا في يده، فلا فرق

عنده في أن يكون المال في يده أو في يد غيره. وصاحب هذه الحالة يسمى المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده. لذا كان صاحب هذه الحالة أقرب إلى الغنى الذي هو وصف الله، وإنما قرب العبد من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكن لا نسمي صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً ليبقى الغنى اسماً لمن له الغنى المطلق عن كل شيء وهو الله سبحانه وتعالى. وأما هذا العبد وإن استغنى عن المال وجوداً وعدماً ولكنه لم يستغن عن أمور أخرى هو بأمس الحاجة إليها؛ كالمدد والتوفيق من الله وغيرها من الكمالات... الزهد درجة هي كمال الأبرار، أما المستغن فهو من المقربين. ولا جرم صار الزهد في حق المستغن نقصاناً إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول فيها كما أن الراغب فيها مشغول بها أيضاً.

والشغل بما سوى الله حجاب عنه، إذ لا بعد بينك وبين الله حتى يكون البعد حجاباً لأنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه لأنه أقرب إليك منك. فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره. وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره. فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله، وكذلك المشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله.

ولكن الكمال أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب الحقيقي بغضاً وحباً، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة، كذلك لا يجتمع بغض وحب في حالة واحدة أيضاً. فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل أيضاً وهو في غفلته سالك طريق القرب حيث يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول عنه هذه الغفلة وتتبدل بالشهود، فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطيّة توصل إلى الله.

إذن إن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالنسبة للراضي والقانع والحريص ونقصان بالنسبة إلى المستغني. بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك الماء والمال، وإذا عرفت الله ووثقت بتدبيره علمت أن قدر حاجتك من المال يأتيك لا محالة ما دمت حياً، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء.

ويمكن أن نقول إن اسم الفقر يطلق على الحالات الخمس الأولى وأما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه له بهذا المعنى، بل إن سمي فقيراً فهو بمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره ومن ضمنها المال. ومن عرف أنه فقير إلى الله في كل أموره كان أحق باسم الفقر. ومن هنا نفهم أن قولهﷺ: «أعوذ بك من الفقر»[1] و «كاد الفقر أن يكون كفراً»[2] لا يناقض قوله:

«أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»[3].

(١) أخرجه النسائي: ج٨، ص٢٦٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٣) أخرجه الحاكم.

فضيلة الفقر

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[2].

وفي الروايات ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته»[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«وكّل الرزق بالحمق ووكّل الحرمان بالعقل ووكل البلاء بالصبر»[4].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦١، رقم ٤.

(٤) الكافي: ج٨، ص٢٢١، رقم ٢٧٧.

وعن الصادق عليه السلام:

«إن فقراء المؤمنين يتقلبون في رياض الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً، قال: سأضرب لك مثل ذلك، إنما مثل ذلك مثل سفينتين مُرّ بهما على عاشر فنظر في أحدهما فلم يرَ فيها شيئاً فقال: أسربوها، ونظر في الأخرى فإذا هي موقورة فقال: احبسوها»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«في مناجاة موسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجّلت عقوبته»[2].

وعنه عليه السلام قال لرجل:

«أما تدخل السوق، أما ترى الفاكهة تباع والشيء مما تشتهيه، قال: بلى، فقال عليه السلام: أما إن لك بكل ما تراه فلا تقدر على شرائه حسنة»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام:

«إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة فيضربوا باب الجنة فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الفقراء، فيقال لهم: أقبل الحساب؟ فيقولون: ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه، فيقول الله تعالى: صدقوا ادخلوا الجنة»[4].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٦٠، رقم ١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٦٣، رقم ١٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦٤، رقم ١٧.

(٤) الكافي: ج٢، ص٢٦٤، رقم ١٩.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«الفقر أزين للمؤمن من العذار على خدّ الفرس»[1].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: إن الله تعالى يقول:

«إني لم أغن الغني لكرامة به عليّ ولم أفقر الفقير لهوان به عليّ وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الله يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهاً بالمعتذر إليهم فيقول:

وعزتي وجلالي ما أفقرتكم في الدنيا من هوان بكم عليّ، ولترون ما أصنع بكم اليوم فمن زوّد أحداً منكم في دار الدنيا معروفاً فخذوا بيده فأدخلوه الجنة. قال: فيقول الرجل منهم: يا رب إن أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم؛ فنكحوا النساء ولبسوا الثياب اللّينة وأكلوا الطعام وسكنوا الدور وركبوا المشهور من الدواب فاعطني مثل ما أعطيتهم. فيقول الله تبارك وتعالى:

لك ولكل عبد منكم ما أعطيت أهل الدنيا، منذ كانت الدنيا إلى أن انقضت الدنيا سبعون ضعفاً»[3].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٦٥، رقم ٢٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٢٦٥، رقم ٢٠.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦١، رقم ٩.

فقالوا: يا رسول الله وما دولتهم. قال: إذا كان يوم القيامة قيل لهم: انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة»[1].

وروي عن علي أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم والدنانير رماهم الله بأربع خصال، بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام والشوكة من الأعداء»[2].

وعن رسول الله ﷺ قال:

«يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة: ومن هم يا ربّنا فيقول: فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري، ادخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مكتوب في التوراة ابن آدم كن كيف شئت كما تدين تُدان، من رضي من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته وزكت مكسبته وخرج من حد الفجور»[4].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمي.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكافي: ج٢، ص١٣٨، رقم ٤.

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«إن الله يقول: يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه وذلك أقرب له مني. ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه وذلك أبعد له مني»[1].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك. وإن كنت إنما تريد مالاً يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ وقال ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإنما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السّعف إذا وجده»[3].

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٤١، رقم ٥.

(٢) المصدر السابق: ص١٣٨، رقم ٦.

فضل الفقير على الغني بحسب تعلق قلبيهما

إن الدنيا ليست مذمومة بنفسها، بل لكونها عائقاً ومانعاً من الوصول إلى الله. والفقر أيضاً ليس مطلوباً ولا مذموماً بنفسه، بل بما يصد عن الحق. فكم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان بن داود عليه السلام، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصود وهو حبّ الله والأنس به. وهذا الحب والأنس لا يتحقق إلا بعد معرفة الله، وسلوك سبيل المعرفة مع وجود الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون أيضاً وقد لا يكونان.

ويمكن اختصار جميع الشواغل والموانع بأمر واحد وهو حب الدنيا، إذ لا يجتمع في القلب حبان؛ حب لله وحب للدنيا. قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ والدنيا معشوقة الغافلين، والمحروم منها مشغول بها وبطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها وبالتمتع بها.

ولكن بشكل عام الفقر أبعد عن الخطر من الغنى، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء. وقد قال بعضهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه طبيعة الآدميين كلهم إلا الفرد الشاذ والنادر، ولما كان الخطاب الشرعي متوجهاً إلى عموم الناس لا الفرد النادر لذا صارت الضراء أصلح للناس.

لذا قال النبي عيسى عليه السلام:

«لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم».

وفي رواية أخرى:

«إن لكل أمة عجلاً وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم»[1].

نعم وحدهم الأنبياء والأولياء يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، ويتم لهم ذلك بعد فضل الله بطول المجاهدة، إذ كان النبي ﷺ يقول للدنيا عندما كانت تتمثل له بزينتها:

«إليك عني إليك عني»[2].

وكان علي عليه السلام يقول:

«يا صفراء غرّي سواي ويا بيضاء غرّي غيري»[3].

أما غير الأنبياء والأولياء فهذا الاستواء عندهم بعيد، لذا كان الأصلح لكافة الخلق فقد المال، لأنهم إن قدروا على المال فلا ينفكون عن الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش في الآخرة، وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته يستوحش من الله ومن حبه وحب صفاته.

وإذا انقطعت أسباب الأنس بالدنيا بتجافي القلب عنها وعن زهرتها، وإذا تجافى القلب عما سوى الله وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصور وجود قلب فارغ من الحب. فإذا أقبل الإنسان إلى الله تجافى عن غيره وإن أقبل إلى غيره تجافى عنه عز

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٧، رقم ١.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٤، ص٣٠٩.

وجل، فيكون إقباله إلى أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر. فعين حب الدنيا هو عين بغض الله، وعين بغض الدنيا هو عين حب الله.

لذا ينبغي أن يكون مطمح قلب العارف العزوف عن الدنيا وأنسه بها، وإن فضل الفقير على الغني ليس إلا بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط. وهنا مكمن منزلة الأقدام وموضع الغرور، فإن الغني ربما يظن أنه منقطع تعلق قلبه بالمال، ولكن حبه له يكون دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده.

لذلك صار الفقر إذاً أصلح لكافة الخلق وأفضل لهم لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإن حركة اللسان ليست مطلوبة بذاتها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور الحقيقي وهو الحق عز وجل. وتأثير حركة اللسان في إثارة الأنس في القلب الفارغ ليس كتأثيرها في القلب المشغول. لذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال عليه السلام: «القلب السليم؛ الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه، قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط. وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[1].

(١) الكافي: ج٢، ص١٦، رقم٥.

آداب الفقير

للفقير آداب في الباطن والظاهر والمخالطة وفي الأفعال ينبغي عليه أن يراعيها.

أ ـ الآداب الباطنية:

١ ـ أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر، أي أن لا يكون كارهاً لفعل الله تعالى فيه. وهو معنى قوله عليه السلام:

«يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا».

٢ ـ أن لا يكون كارهاً للفقر بل وراضياً به أيضاً وهو أرفع من الحالة الأولى.

٣ ـ أن يكون طالباً للفقر وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، فيكون متوكلاً في باطنه على الله، واثقاً به وبأن قدر ضرورته يأتيه لا محالة. وهذه الحالة أرفع من سابقتيها.

٤ ـ أن يستوي عنده الفقر والغنى وهو من أرفع المراتب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن لله عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربّه ولا يشكو حاله

ويشكر الله على فقره، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسيء عليه خلقه ويعصي به ربه ويكثر الشكاية ويتسخط بالقضاء».

ب ـ آدابه الظاهرية:

١ ـ أن يظهر التعفف والتجمّل، حيث قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1].

٢ ـ أن لا يظهر الشكوى والفقر.

٣ ـ أن يستر فقره ويستر أنه يستره. ففي الحديث:

«إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال».

ج ـ آدابه في المخالطة:

١ ـ أن لا يتواضع لغني لأجل غناه بل يتكبر عليه. قال علي عليه السلام:

«ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل».

٢ ـ أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من الطمع.

د ـ آدابه في أفعاله:

١ ـ أن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة الله.

٢ ـ أن لا يمتنع عن بذل قليل ما يفضل عنه. فإن ذلك جهد المقلّ وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

قال رسول الله ﷺ:

«درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم. قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: أخرج رجل من عُرض ماله مائة ألف فتصدق بها، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب الدرهمين»[1].

٣ ـ أن لا يدَّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي.

وفي الادخار ثلاث درجات:

الأولى: أن لا يدّخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصدِّيقين.

الثانية: أن يدخر لأربعين يوماً، وما زاد عليه صار من طول الأمل. وهذه درجة المتقين.

الثالثة: أن يدخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين.

ومن زاد في الادخار على هذه فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيّز الخصوص.

---

(١) أخرجه النسائي: ج٥، ص٥٩.

ما ينبغي أن يلاحظه الفقير عند العطاء

ينبغي للفقير أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور:

الأول: نفس المال:

فنفس المال ينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات، فإن كان فيه شبهة فينبغي الاحتراز من أخذه.

الثاني: غرض المعطي:

إن المعطي لا يخلو غرضه من ثلاثة أمور

١ ـ الهدية: فلا بأس بقبولها، فإن قبولها سنّة رسول الله ﷺ ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منّة، وإن كان فيها منّة فالأولى تركها. وإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنّة فليرد البعض دون البعض. فقد أهدى رجل إلى النبي ﷺ سمناً وأقطاً وكبشاً فقبل السمن والأقط وردّ الكبش[١]. وكان ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض.

٢ ـ للثواب: أي أن يكون غرض المعطي مجرد الثواب بعنوان صدقة أو زكاة، وفي هذه الحالة عليه أن ينظر إلى نفسه ليعرف هل هو مستحق للزكاة أو لا، فإن اشتبه فهو محل شبهة.

---

(١) أخرجه أحمد.

٣ ـ الشهرة والرياء: أي أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يردّ عليه قصده الفاسد ولا يقبله وإلا كان معيناً له على غرضه الفاسد.

الثالث: غرض الفقير في الأخذ:

ينبغي للفقير أن ينظر إلى ما يعطى أهو محتاج إليه أم هو مستغن عنه. فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ.

قال النبيﷺ: «ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً»[١].

وقالﷺ أيضاً: «من آتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه، فلا يردّه».

أما إذا كان ما آتاه زائداً على حاجته فلا يخلو:

١ ـ إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه.

٢ ـ أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم، لما في طبعه من الرفق والسخاء. ففي الحالة الأولى؛ لا وجه لأخذه إن كان طالباً طريق الآخرة، فإن ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو للشيطان، «ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

وقد قال النبيﷺ:

«لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنّه فما زاد فهو حساب»[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه الترمذي: ج٩، ص٢٠٦.

إذن فأخذ الإنسان قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه ففيه حساب.

وأما إن كان غرضه الرفق وطلب الثواب وهي الحالة الثانية، فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا اعتماداً على السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه وإن مات قبل القضاء قضى الله عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه، فلا يغرّ المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله أمامه وما ينوي صنعه. ودين مثل هذا الرجل يجب أن يقضى من مال بيت المال أو من الزكوات، فقد قال تعالى:

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[1].

إذاً كلما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذه، وينبغي أن يرى أن ما يأخذه هو من الله لا من المعطي، وأن المعطي ليس إلا واسطة قد سخرت للعطاء.

قال موسى عليه السلام:

«يا رب جعلت رزقي هكذا في أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة. فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائي أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخّر مأجور».

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٧.

ما ينبغي أن يلاحظه الفقير عند السؤال

لقد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات عليه، ووردت أيضاً رخص تدل على جواز السؤال وصحته. ولكن بقي السؤال حراماً في الأصل وإنما يباح لضرورة أو حاجة مهمة. والسبب في إحالة التحريم ثلاثة أمور:

أولاً: إظهار الشكوى من الله:

إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عليه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل كان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذا سؤال العباد يكون تشنيعاً على الله.

الثاني: إن فيه إذلالاً السائل نفسه لغير الله:

وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذلّ نفسه لمولاه، فإنّ فيه عزة. أما سائر الخلق فإنهم عبادٌ أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

الثالث: إنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً:

لأنه ربما لا تسمح له نفسه بالبذل عن طيب قلب منه. فإذا بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ. وإذا امتنع عن العطاء؛ استحيى وتأذى في نفسه بالمنع لأنه يرى نفسه في صورة البخلاء. ففي

البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان بالنسبة له، والسائل هو السبب في الإيذاء.

وهناك أخبار صريحة في التحريم والتشديد. فقد بايع رسول الله ﷺ قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة:

«ولا تسألوا الناس شيئاً»[1].

وكان ﷺ يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول:

«من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله».

وقال ﷺ أيضاً:

«ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحدٌ أحداً، ولو يعلم المعطي ما في العطية ما ردّ أحدٌ أحداً»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إياكم وسؤال الناس فإنه ذلّ في الدنيا وفقر تعجلونه وحساب طويل يوم القيامة»[4].

وعن النبي ﷺ أنه قال:

«الأيدي ثلاث؛ يد الله العليا، ويد المعطي التي تليها ويد

(١) أخرجه مسلم: ج٣، ص٩٧.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة.
(٣) الكافي: ج٤، ص٢٠، رقم ٢.
(٤) المصدر السابق: رقم ١.

المُعطَى أسفل الأيدي. فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم، إن الأرزاق دونها حجبٌ فمن شاء قنى حياءه وأخذ رزقه، ومن شاء هتك الحجاب وأخذ رزقه. والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم عُرض الوادي فيحتطب حتى لا يلتقي طرفاه ثم يدخل به السوق فيبيعه بمدّ من تمر يأخذ ثلثه ويتصدق بثلثيه خيرٌ له من أن يسأل الناس؛ أعطوْه أم حرموه»[1].

وعن النبي ﷺ أيضاً قال:

«من فتح على نفسه باباً من مسألة فتح الله عليه باب الفقر»[2].

أما إباحة السؤال لضرورة، فإن الشيء إنما يكون مضطراً إليه أو محتاجاً إليه حاجة مهمة، أو خفيفة أو مستغنياً عنه، فهذه أربع أحوال:

١ ـ أما المضطر إليه:

فهو سؤال الجائع عند خوفه الموت أو المرض على نفسه، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه، فالسؤال هنا مباح، بشرط أن يكون المسؤول راضياً في الباطن والسائل عاجزاً عن الكسب.

٢ ـ أما المحتاج إليه حاجة مهمة:

كمريض محتاج إلى دواء ولكن لا يخاف عليه كثيراً إذا لم يستعمله، وكمن له جبة ولكن لا قميص له تحتها في الشتاء وهو يتأذى من البرد ولكنها أذية محتملة بالنسبة له. وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة. هذه الحالة يباح فيها السؤال أيضاً لأنها

(١) الكافي: ح٤، ص٢٠ رقم ٣.

(٢) المصدر السابق: ص١٩، رقم ٢.

حاجة محققة، ولكن الصبر عنها أولى، وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله.

٣ ـ أما المحتاج إليه حاجة خفيفة:

كسؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر به الخروق التي في ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، وكمن يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذه ونحوها إن كان فيها المحذورات الثلاثة التي ذكرناها من الشكوى والذل وإيذاء المسؤول فهي حرام، وإن لم تكن واجدةً لشيء من ذلك فهي مباحة ولكن مع الكراهة في ذلك.

٤ ـ أما المستغني:

فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله، أو وهو غير محتاج إليه أصلاً، فسؤاله في هذه الحالة حرام قطعاً كما لا يخفى.

□ سقوط المحذورات الثلاث:

في بعض الحالات قد تسقط المحذورات الثلاث التي كانت سبباً في تحريم السؤال وهي: الشكوى والذل والإيذاء.

١ ـ فقد تندفع الشكوى بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق، فلا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول مثلاً: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب آخر فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج بذلك عن حد الشكوى.

٢ ـ أما الذل فيندفع عندما يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك ولا يزدريه، أو سؤاله الرجل السخي الذي قد أعد

ماله لمثل هذه المكارم فيسقط عنه الذل بذلك لأن الذلّ لازم للمنّة ولا منّة في هذه الحالات.

٣ ـ أما الإيذاء، فسبيل الخلاص منه أن لا يعيّن السائل شخصاً بعينه، بل يلقي الكلام بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة.

وأما إن أراد أن يسأل شخصاً معيناً فينبغي أن لا يصرّح بل يلمّحُ تلميحاً بحيث يبقى للمسؤول سبيلاً للتغافل إن أراد.

قال النبي ﷺ:

«لا تسألوا أمتي في مجالسهم فتبخلوها»(١).

وينبغي أيضاً أن يسأل من لا يستحي منه لو ردّه أو تغافل، لأن الحياء من السائل يؤذي. وأما لو أخذه مع علمه بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين فهو شبهة وحرام. لأن ما يأخذه مع الكراهة لا يملكه ويجب عليه ردّه إلى صاحبه.

ويمكن أن يقال إن هذا أمر باطني يعسر الاطلاع فيه على حياء المعطي وعدم رضاه، فربما يظن السائل أنه راضٍ ولكنه في الباطن غير راضٍ؟!

والجواب أنه لذلك ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحدٍ شيئاً أصلاً إلا في موضعين:

١ ـ الضرورة.

٢ ـ السؤال من الأصدقاء والإخوان: فقد كانوا يأخذون منهم المال بغير سؤال واستئذان، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا

---

(١) الكافي: ج٤ ص ٤٧، رقم ٨.

القلب لا نطق اللسان. وهم قد وثقوا بإخوانهم وأنهم لا يفرحون ولا يرضون بأن يسألونهم.

وحد إباحة السؤال: أن تعلم أن المسؤول لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك.

القسم الثاني

الزهد

حقيقة الزهد

الزهد ينتظم من حال وعلم وعمل:

١ ـ الحال: ونعني به ما يسمى زهداً:

إن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين. وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن شيء ما إلى ما هو خير منه وأفضل. وسبب العدول هو الرغبة في هذا الآخر الأفضل. فالزهد يستدعي مرغوباً عنه ومرغوباً إليه.

يشترط في المرغوب عنه شرطان:

الأول: أن يكون نفس هذا المرغوب عنه مرغوباً فيه أيضاً من جهة أخرى، لأن من رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً، فتارك التراب والحجر والحشرات مثلاً لا يسمى زاهداً، بل تارك الدراهم والذهب يسمى زاهداً.

الثاني: أن يكون المرغوب عنه مقدوراً عليه لأن تركه ما لا يقدر عليه محال. والزهد في الدنيا عبارة عن العدول عن الدنيا رغبة في الآخرة. فكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا. والذي يرغب عن كل ما سوى الله حتى الجنان ولا يحب إلا الله فهو الزاهد المطلق. فالزهد بأعلى مراتبه عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ للنفس والتوجه إلى الله تعالى فقط. أما الذي يزهد في الدنيا طمعاً في الحور والقصور

والفواكه والأنهار فهو أيضاً زاهد ولكن دون الأول؛ أي الزاهد المطلق.

٢ ـ العلم: وهو ثمرة الحال:

وهو العلم بكون المتروك حقيراً، فمن عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى صارت الدنيا عنده مذمومة وحقيرة. وقد أشار تعالى إلى خساسة الدنيا فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[١]. وأشار إلى نفاسة الآخرة بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٢].

٣ ـ العمل: وهو الصادر عن حال الزهد والعلم به:

فهو عبارة عن الترك واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير وأرفع. فالزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات مكانها.

وعلامة الزهد الإخراج، فإن أخرجت بعض الدنيا من قلبك دون البعض، فأنت زاهد فيما أخرجت وتركت فقط، ولست في هذه الحالة زاهداً مطلقاً. وإن لم يكن معك مال ولم تساعدك الدنيا فلا تتصور نفسك زاهداً، لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه. وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت من الزاهدين. فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره لأنك ما دمت لم تجرب نفسك حال القدرة فلا تثق بقدرتك على الترك.

فقد قال المسلمون في عهد رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلنا حتى نزل قوله تعالى:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٠.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1].

وقال أحدهم: ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[2].

وليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل استمالة القلوب والفتوة والاشتهار، لأنها من حظوظ العاجلة بل هي ألذ وأهنأ من المال نفسه. إنما الزهد أن تتركها هي أيضاً لعلمك بحقارتها وضعتها أمام الآخرة ونعمة اللقاء بالحق تعالى. والكلام الجامع في حقيقة الزهد ما روي عن مولى الموحدين وأمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن؛ قال الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) نهج البلاغة: أبواب الحكم.

فضيلة الزهد

□ في الآيات الشريفة:

قال الله تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ - إلى قوله - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[1] حيث نسب تعالى الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء.

وقال تعالى في آية أخرى:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[2] حيث جاء في تفسيرها أنها على الزهد في الدنيا.

وقال تعالى أيضاً:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[3]. وقيل في معناها: أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧٩ - ٨٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.

وقال عز وجل:

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1].

وقال أيضاً:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾[2].

□ في الروايات الشريفة:

قال الرسول الأكرمﷺ:

«من أصبح وهمّه الدنيا شتت الله عليه أمره، وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له همّه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[3].

وقال النبيﷺ: «إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا»[4]، فجعلﷺ الزهد سبباً للمحبة، ومن أحبه الله فهو في أعلى الدرجات.
«سئل رسول اللهﷺ عن شرح قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، فقيل له: ما هذا الشرح؟

قالﷺ: إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: يا رسول الله هل لذلك علامة؟

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.
(٣) الكافي: الكليني.
(٤) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١٠٢.

قال ﷺ: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»[1].

«قال حارثة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً.

فقال ﷺ: وما حقيقة إيمانك؟

قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً.

فقال ﷺ: فالزم، هذا عبدٌ نور الله قلبه بالإيمان»[2].

وقال ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا لنستحي منه. قال: ليس كذلك، تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون»[3].

وروي عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ أنه قال:

> «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة في قلبه فأنطق به لسانه، وعرّفه داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[4].

وروي عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع.

فقال ﷺ: «يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها، وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها، يا عائشة إن الدنيا لا ينبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٤، ص٣١١.

(٢) أخرجه الطبراني.

(٣) أخرجه الطبراني.

(٤) الكافي: ج٢، ص١٢٨.

الله لم يرضَ لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر على محبوبها، ثم لم يرضَ لي إلا أن يكلفني مثل ما كلفهم، فقال:

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والله ما لي بدٌّ عن طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله»[1].

وعن رسول الله ﷺ قال:

«من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث: هم لا يفارق قلبه أبداً، وفقر لا يستغني معه أبداً، وحرص لا يشبع معه أبداً».

وعنه ﷺ أيضاً أنه قال:

«إن ربي عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً. فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك»[2].

خرج ذات يوم رسول الله ﷺ ومعه جبرائيل فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ: والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق. فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدّة من السماء أفزعته، فقال ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ فقال جبرائيل: لا؛ ولكن هذا إسرافيل قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح الأرض، فأمرني أن أعرض

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٤٥.

(٢) الترمذي في السنن: ج٩، ص٢٠٩.

عليك إن أحببت أن أسيّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت، فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً، فأومأ إليه جبرائيل أن تواضع لله، فقال ﷺ: نبياً عبداً ثلاثاً[1].

وقال النبي ﷺ أيضاً:

«إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصّره بعيوب نفسه»[2].

وقال ﷺ أيضاً:

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[3].

وقال ﷺ:

«من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف من النار لها عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات»[4].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: قال الله: إن من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيف الحال ذا حظّ من الصلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضاً في الناس، جعل رزقه كفافه فصبر عليه، عجّلت منيته فقلّ تراثه وقلّت بواكيه»[5].

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس.

(٣) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١٠٢.

(٤) الكافي: ج٢، ص١٣٢.

(٥) المصدر السابق: ص١٤٠، رقم ١.

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال:

«مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله براعي إبل فبعث إليه يستسقيه فقال: أما ما في ضروعها فصبوح الحيّ، وأما ما في آنيتنا فغبوقهم (الغبوق = شرب آخر النهار)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم أكثر ماله وولده، ثم مرّ براعي غنم فبعث إليه يستسقيه فحلب ما في ضروعها وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله فبعث إليه بشاة وقال: هذا ما عندنا وإن أحببت أن نزيدك زدناك، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم ارزقه الكفاف، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله دعوت للذي ردك بدعاء عامّتنا نحبّه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاء كلنا نكرهه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى، اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه، وذلك أبعد له مني»[2].

---

(١) الكافي: ج٢، رقم ٤.

(٢) المصدر السابق: ص١٤١، رقم ٥.

علامات الزهد

قد يُظنّ أن تارك المال زاهد وهو في الحقيقة ليس كذلك. لأن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد وطلبه. فكم من الراهبين عودوا أنفسهم على قدر يسير من الطعام، ولازموا ديراً لا باب له، وما ذلك إلا لمسرّتهم في معرفة الناس حالهم لمدحهم والثناء عليهم. فكل هذه العلامات لا تدل على الزهد، بل إن معرفة الزهد أمر دقيق وصعب، وقد ذكروا له علامات ثلاث وهي:

١ ـ العلامة الأولى:

أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

٢ ـ العلامة الثانية:

أن يستوي عنده من يذمه ومن يمدحه.

٣ ـ العلامة الثالثة:

أن يكون أنسه بالله تعالى، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا

---

(١) سور الحديد، الآية: ٢٣.

يخلو القلب من حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء فلا يجتمعان.

وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال: إلى الأنس بالله.

أما الأنس بالله وبالدنيا معاً فلا يجتمعان، فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه يكون قد دخل في الزهد بقدر تركه إلى أن يترك كل ما سوى الله.

إذن فعلامة الزهد استواء الغنى والفقر، والعز والذل، والمدح والذم، بسبب غلبة الأنس بالله تعالى.

درجات الزهد وأقسامه

١ ـ درجات الزهد بالنسبة إلى نفسه:

إن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته، وهو على ثلاث درجات:

١ ـ الدرجة السفلى:

أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتة ولكن يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

فالمتزهد يذيب نفسه أولاً ثم كيسه، والزاهد يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه.

والمتزهد على خطر فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها.

٢ ـ الدرجة الثانية:

أن يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها ولطمعه في الآخرة. كالذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنه لا يشق عليه ذلك. وهذا الزاهد هنا يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، فيكاد يكون معجباً بنفسه وزهده، ويظن أنه ترك شيئاً ما ذو قدر لما هو أعظم منه قدراً، وهذا أيضاً نقصان.

٣ ـ الدرجة الثالثة:

وهي الدرجة العليا، وهي أن يكون زهده طوعاً ومن ثم يزهد في زهده أيضاً، فلا يرى زهده لأنه لا يرى أنه ترك شيئاً، فهو قد عرف أن الدنيا هي لا شيء، لأن الدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة لا تساوي شيئاً. وهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا.

٢ ـ درجات الزهد بالنسبة إلى المرغوب فيه:

إن انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه هو أيضاً على ثلاث درجات:

١ ـ الدرجة السفلى:

أن يكون المرغوب فيه هو النجاة من النار ومن سائر الآلام؛ كعذاب القبر، ومناقشة الحساب، وخطر الصراط... وهذا زهد الخائفين.

٢ ـ الدرجة الثانية:

أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها.. وهذا زهد الراجين، لأن هؤلاء ما تركوا الدنيا للخلاص من الألم، بل لأنهم طمعوا في النعيم الدائم الذي لا آخر له.

٣ ـ الدرجة الثالثة:

وهي الدرجة العليا، بحيث لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها. ولا إلى اللذات لينالها ويظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى، فصار همّه هماً واحداً. وهذا هو الموحّد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى، لأن

من طلب غير الله فقد عبده، فكل مطلوب معبود، وطلب غير الله من الشرك الخفي. وهذا هو زهد المحبين، وهم العارفون لأنه لا يحب الله إلا من عرفه. فمن عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين هذه اللذة السامية وبين لذة التنعم بالحور العين، والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن. فلا يؤثر على لذة النظر غيرها.

٣ ـ درجات الزهد بالنسبة إلى المرغوب عنه:

إن المرغوب عنه له إجمال وتفصيل.

١ ـ المرغوب عنه إجمالاً:

وهو على أربع درجات:

الدرجة الأولى: إن المرغوب عنه هو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه.

الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر.

الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجع حظوظ النفس.

الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة. والمقصود منهما كل علم وقدرة يقصد بهما ملك القلوب.

٢ ـ المرغوب عنه إجمالاً:

إننا إذا جاوزنا الإجمال إلى التفصيل، يكاد في هذه الحالة أن يخرج الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها حيث قال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

ثم ردّه في آية أخرى إلى خمسة فقال:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2].

ثم في موضع آخر ردّه إلى اثنين فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[3].

ثم ردّ الكل إلى واحد في موضع آخر فقال:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4].

فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه.

وإذا عرفت طريق الإجمال والتفصيل، عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض من الآخر، وإنما يفارقه في الشرح مرّة والإجمال أخرى.

■ النتيجة:

والحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٦.

(٤) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

وكلما رغب عن حظوظ النفس، رغب عن البقاء في الدنيا أيضاً، فيقصر أمله فيها لا محالة.

ولا معنى لحب الدنيا إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها ولذلك قال تعالى:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ . . . وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾(١).

وقال تعالى أيضاً:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(٢).

أي أنكم لا تريدون البقاء إلا لأجل متاع الدنيا والتمتع بها. فظهر عند ذلك حال الزاهدون وانكشف حال المنافقين.

أما الزاهدون المحبون لله فقد قاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنيين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يشمون رائحة الجنة فيه ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة. وكل من مات منهم على فراشه تحسر أشد التحسر على فوت الشهادة.

أما المنافقون فقد فروا من الزحف خوفاً على أنفسهم من الموت فقيل لهم:

﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٨.

فإيثاركم البقاء على الشهادة استبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾[1] أما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة أو ثلاثين بتمتع أبدي استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به.

فعن الإمام السجاد أنه قال:

«إن الزهد في آية من كتاب الله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ وقد مضى هذا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهي الكلمة الجامعة في الزهد.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عن كل ما حرّم الله عز وجل»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها وطلب محمدة عليها ولا عوض لها، بل ترى فوتها راحة وكونها آفة، وتكون أبداً هارباً من الآفة، معتصماً بالراحة، والزاهد الذي يختار

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

(٢) الكافي: ج٥، ص٧١، رقم ٣.

الآخرة على الدنيا والذلّ على العزّ والجهد على الراحة، والجوع على الشبع، وعافية الآجل على محنة العاجل، والذكر على الغفلة، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة. قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». ألا ترى كيف أحبَّ ما أبغضه الله وأي خطأ أشد جرماً من هذا؟»[١].

(١) مصباح الشريعة: الباب ٣١.

الزهد في الدنيا طريق لقاء الله

إن الناس منهمكون في هذه الحياة بأحد أمرين:

١ ـ الفضول.

٢ ـ المهم.

الفضول كالخيل المسوّمة مثلاً يقتنيها الإنسان ليركبها وهو قادر على المشي.

أما المهم فهو: المطعم والملبس، والمسكن والمنكح والمال والجاه.

والجاه يطلب لأغراض هذه الستة، ومعناه ملك القلوب بطلب المحل فيها ليتوصل بها إلى تحقيق الأغراض وإنجاز الأعمال. وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما:

١ ـ لجلب نفع.

٢ ـ لدفع ضرّ.

٣ ـ لخلاص من ظلم.

وينبغي أن نعلم أن الخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحلّ في القلوب أصلاً. فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين.

وأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه بغير كسب فهي أوهام كاذبة. وعلاج ذلك بالتحمل والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه.

إذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه داعٍ إلى الكثير. فمن يتبع الهوى وشهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه سلاسل تقيده بما يشتهيه متى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده أيضاً المال والأهل والولد والجاه وغيرها من حظوظ الدنيا. ولو خطر له خاطر دفعه على الخروج من الدنيا لم يقدر عليه، ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها. ولو ترك باختياره أمراً محبوباً إليه، كاد أن يكون هذا الترك قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه، إلى أن يفرّق ملك الموت بينه وبين ما أحب دفعة واحدة، فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فتنت قلبه، تجذبه إليها ومخالب الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة. فيكون أهون أهواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بسبب التجاذب بين الجانبين. وهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرات فوت النزول من أعلى عليين وجوار رب العالمين إلى أسفل سافلين.

فبالنزوع إلى الدنيا يحجب الإنسان عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم إذ النار غير مسلطة إلا على المحجوبين. قال الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[1]

فرتب العذاب بالنار على الاحتجاب عن الحق سبحانه.

ولما انكشف لأولياء الله أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه، إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكامل، حتى كان أحدهم

---

(١) سورة المطففين، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

يعرض له المال الحلال فلا يأخذه خوفاً من أن يفسد المال قلبه. فمن كان له قلب فإنه يخاف من فساده، أما من أمات حب الدنيا قلبه فقد أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾(1).

وقال:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(2).

وقال:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾(3).

فأحال الله تعالى كل ذلك إلى الغفلة والاحتجاب وعدم العلم. ولذلك لما قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال عليه السلام: أخرج مالك والحقني، فقال الرجل: لا أستطيع. فقال عليه السلام: بشدة يدخل الغني الجنة.

---

(1) سورة يونس، الآية: ٧.

(2) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(3) سورة النجم، الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠.

الزهد في كلام الإمام الصادق عليه السلام

دخل سفيان الثوريّ على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياباً بيضاً كأنّها غرقىء البيض[1] فقال له: إنَّ هذا اللّباس ليس من لباسك، فقال له: اسمع منّي وعِ ما أقول لك فإنّه خيرٌ لك عاجلاً وآجلاً إن أنت متَّ على السنّة والحقّ ولم تمت على بدعة، أُخبرك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب[2] فأمّا إذا أقبلت الدُّنيا فأحقُّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها فما أنكرت يا ثوري فوالله إنّني لمع ما ترى ما أتى عليَّ مذ عقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقٌّ أمرني أن أضعه موضعاً إلاَّ وضعته، قال: فأتاه قومٌ ممّن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الّذي هم عليه من التقشّف فقالوا له: إنَّ صاحبنا حصر عن كلامك[3] ولم تحضره حججه فقال لهم: فهاتوا حججكم فقالوا له: إنَّ حججنا من كتاب الله، فقال لهم: فأدلوا بها فإنّها أحقُّ ما اتّبع وعمل به، فقالوا يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4] فمدح

(١) الغرقىء القشرة الملتزمة ببياض البيض.
(٢) جدب: انقطاع المطر. القفر: خلو الأرض من الماء.
(٣) الحصرة: العيّ في النطق والعجز في الكلام.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٩.

فعلهم، وقال في موضع آخر ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1] فنحن نكتفي بهذا، فقال رجل من الجلساء: إنّا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيّبة ومع ذلك تأمرون النّاس بالخروج من أموالهم حتّى تمتّعوا أنتم منها؟! فقال له أبو عبد الله عليه السلام: دعوا عنكم ما لا ينتفعون به أخبروني أيّها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الّذي في مثله ضلَّ من ضلَّ وهلك من هلك من هذه الأُمّة فقالوا له: أو بعضه فأمّا كلّه فلا، فقال لهم: فمن ههنا أتيتم[2] وكذلك أحاديث رسول الله[3] فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزَّ وجلَّ إيّانا في كتابه عن القوم الّذين أخبر عنهم بحسن فِعالهم فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عزَّ وجلَّ وذلك أنَّ الله جلَّ وتقدَّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخاً لفعلهم وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً لكيلا يضرُّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة الّذين لا يصبرون على الجوع فإن تصدَّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً، ومن ثمّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثمّ الثانية على نفسه وعياله، ثمَّ الثالثة على قرابته الفقراء، ثمَّ الرّابعة على جيرانه الفقراء، ثمَّ الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجراً» وقال صلى الله عليه وآله للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أو ستّة من الرَّقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: «لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنونه مع المسلمين ترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس» ثمَّ قال: حدَّثني أبي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إبدأ بمن تعول الأدنى

---

(١) سورة الدهر، الآية: ٨.

(٢) فمن ههنا أتيتم: أي دخل عليكم البلاء.

(٣) أي فيها أيضاً ناسخ ومنسوخ، محكم ومتشابه وأنتم لا تعرفونها.

فالأدنى» ثمَّ هذا ما نطق به الكتاب ردًّا لقولكم ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾[1] أفلا ترون أنَّ الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم وسمّى من فعل ما تدعون الناس إليه مسرفاً وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2] فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير ولكن أمر بين أمرين لا يعطي جميع ما عنده ثمَّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الّذي جاء عن النبيِّ ﷺ «إنَّ أصنافاً من أمّتي لا يستجاب لهم دعاؤهم: رجلٌ يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم[3] ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه، ورجلٌ يدعو على امرأته وقد جعل الله عزَّ وجلَّ تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول ربِّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرِّزق فيقول الله له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتّباع أمري ولكيلا تكون كلاً على أهلك، فإن شئت رزقتك وإن شئت قتّرت عليك وأنت غير معذور عندي، ورجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثمَّ أقبل يدعو يا ربِّ ارزقني فيقول الله عزَّ وجلَّ ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلاّ اقتصدت فيه كما أمرتك ولِمَ تسرف وقد نهيتك عن الإسراف، ورجل يدعو في قطيعة رحم» ثمَّ علّم الله نبيّه ﷺ كيف ينفق وذلك أنّه كانت عنده أوقيّة من الذَّهب فكره أن تبيت عنده فتصدَّق بها فأصبح وليس عنده شيء وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتمَّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رقيقاً فأدَّب الله عزَّ وجلَّ نبيّه ﷺ بأمره فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) الغريم: المديون.

﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[١] يقول: إنَّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال فهذه أحاديث رسول الله يصدِّقها الكتاب والكتاب يصدِّقه أهله من المؤمنين وقال: أبو بكر عند موته حيث قيل له: أوص فقال: أوصي بالخُمس والخمس كثيرٌ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رضي بالخمس فأوصى بالخمس وقد جعل الله له الثلث عند موته، ولو علم أنَّ الثلث خيرٌ له أوصى به، ثمَّ من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ وأبو ذر ـ رحمه الله ـ فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتّى يحضر عطاؤه من قابل فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليَّ الفناء، أما علمتم يا جهلة أنَّ النفس قد تلتاث[٢] على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت. وأمّا أبو ذرّ ـ رضي الله عنه ـ فكانت له نويقات وشويهات يحلبها[٣] ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللّحم أو نزل به ضيف أو رأى بأهل الماء الّذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم بقَرَم اللّحم[٤] فيقسّمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم، ومن أزهد من هؤلاء، وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) تلتاث: تبطىء وتحتبس عن الطاعات.

(٣) نويقات، مصغر ناقة. شويهات: مصغر شاة.

(٤) القرم: شدة شهوة اللحم.

واعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه أنَّ رسول الله قال يوماً: «ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن أنّه إن قرّض جسده في دار الدُّنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له وكلُّ ما يصنع الله به فهو خيرٌ له» فليت شعري هل يحيق فيكم[1] ما قد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيدكم، أما علمتم أنَّ الله قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرَّجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار، ثمَّ حوَّلهم عن حالهم رحمة منه لهم فصار الرَّجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورة هم[2] حيث يقضون على الرَّجل منكم نفقة امرأته إذا قال: إنّي زاهد وإنّي لا شيء لي فإن قلتم جورة ظلّمكم أهل الإسلام وإن قلتم بل عدول خصمتم أنفسكم وحيث تردُّون صدقة من تصدَّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث، أخبروني لو كان الناس كلّهم كالّذين تريدون زهّاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم فعلى من كان يتصدَّق بكفّارات الأيمان والنذور والصَدَقات من فرض الزَّكاة من الذَّهب والفضّة والتمر والزَّبيب وسائر ما وجب فيه الزَّكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدُّنيا إلاّ قدَّمه، وإن كان به خصاصة، فبئس ما ذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عزَّ وجلَّ وسنّة نبيّه وأحاديثه الَّتي يصدِّقها الكتاب المنزل وردّكم إيّاها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي، وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده

---

(١) يحيق فيه: أثر فيه. يحيق به: أحاط. يحيق بهم: نزل.

(٢) أجورة هم: جامع جائر.

فأعطاه الله جلَّ اسمه ذلك وكان يقول الحقّ ويعمل به، ثمَّ لم نجد الله عزَّ وجلَّ عاب عليه ذلك ولا أحداً من المسلمين. وداود النبيّ قبله في ملكه وشدَّة سلطانه، ثمَّ يوسف النبيّ حيث قال لملك مصر: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فكان من أمره الّذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحقَّ ويعمل به فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه، ثمَّ ذو القرنين عبد أحبّ الله فأحبّه الله وطوى له الأسباب وملّكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقول الحقَّ ويعمل به، ثمّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه فتأدَّبوا أيّها النفر بآداب الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين واقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به وردُّوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحلَّ الله فيه ممّا حرَّم فإنّه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ودعوا الجهالة لأهلها فإنّ أهل الجهل كثير وأهل العلم قليلٌ وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وبإسناده عنه عليه السلام أنّه سئل عن الزُّهد في الدُّنيا قال: «ويحك حرامها فتنكّبه»(٢).

وعنه عليه السلام: «ليس الزُّهد في الدُّنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال، بل الزُّهد في الدُّنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عزَّ وجلَّ»(٣).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦. والرواية عن الكافي: ج٥، ص٦٥، رقم ١.

(٢) الكافي: ج٥، ص٧٠، رقم ١.

(٣) الكافي: ج٥، ص٧٠، رقم ١.

الفهرس

الصبر والشكر

القسم الأول: الصبر

القسم الثاني: الشكر

الخوف والرجاء

القسم الأول: الخوف

القسم الثاني: الرجاء

الفقر والزهد

القسم الأول: الفقر

القسم الثاني: الزهد